كتاب « البديع فى وصف الربيع »

لأبى الوليد إسماعيل الحميرى الإشبيلي

« دراسة موضوعية فنية »

دكتورة

وفاء إسماعيل البردان

مدرس الأدب والنقد - بجامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

التقديم:

تغنى الأدباء والشعراء بمباهج الطبيعة، ومفاتنها قديماً وحديثاً ووصفوا ما تعج به من مظاهر الجمال بروائع القول شعراً ونثراً، وقد برع الأندلسيون براعة واضحة في هذا الجانب، وأبدعوا فيه إبداعا ظاهرا، يتجلي فيما خلفوه من آثار شعرية، يصفون فيها طبيعة بلادهم، ويستجلون مباهجها ومفاتنها التي تخلب الألباب جمالاً وروعة وبهاء .

.. وكتاب البديع في وصف الربيع لأبي الوليد الحميري الإشبيلي هو روضة غناء، وبستان زاهر جميل، حشد فيه أبو الوليد كثيراً من المختارات الشعرية والنثرية المتعلقة بفصل الربيع وما ينجم فيه من أزهار . ولم يقتصر دور أبي الوليد على الرواية والتسجيل فحسب بل أضاف لاختياراته ومروياته تعليقات وتعقيبات مهمة ، ووازن بينها ، وقرن النظير إلى النظير ، والشبيه إلى الشبيه ، فجاء كتابه في نهاية المطاف جنة يانعة تحفل جنباتها بالزهور والنواوير .

... ويعد هذا الكتاب مصدراً مهما من مصادر أدب الطبيعة في الأندلس ، كما أننا باستعراض محتواه نتعرف على مؤلفه أبي الوليد الحميري الإشبيلي التي بدت شخصيته العلمية واضحة جلية، فعرفناه أديبا شاعرا مصنفا وإن لم يصلنا من إبداعه الأدبي سوى هذا الكتاب .

لذا آثرت أن أتناول هذا الكتاب ؛ لطرافة موضوعه ، وتعبيره عن ظاهرة مهمة من ظواهر الأدب الأندلسي ، وهو أدب الروضيات والربيعيات ، وسيتضح من خلال عرض الكتاب أن هذه الألوان كانت شائعة في الأدب الأندلسي ، وموضوعا اعتز به الأندلسيون وتوفروا عليه ، وعدوا أنفسهم متفوقين فيه على المشارقة .

وقد جاءت دراستي لذلك الكتاب في تمهيد وثلاثة فصول وخاتمة .

في التمهيد عرفت بالكتاب وأهمية مادته العلمية ، ثم بمولفه ، وأتبعت ذلك بعرض موجز لمحتواه .

وفي الفصل الأول تحدثت عن طبيعة اختياراته في كتابه وتقسيمه له . وبدأت بإلقاء الضوء على اختياراته في الفصل الأول من كتابه ، ثم في الفصل الثاني ، وعرضت أهم الرسائل التي أثبتها في ذلك الفصل وأهمها رسالتان : رسالة أبي حفص بن برد ، ثم رسالة أبي الوليد التي يعارض بها رسالة ابن برد ، ثم تناولت اختياراته في الفصل الثالث من كتابه موضحة الظواهر العامة لتلك الاختيارات .

وفي الفصل الثاني تناولت كتاب البديع من الجانب الفني فأشرت إلى ما اتسمت به مرويات أبي الوليد من براعة التصوير والتشخيص ، وعن دلالات اللغة من خلال المختارات ، وعن امتزاج شعر الطبية بغرض المدح حيث جعل الشعراء شعر الروضيات مدخلا لقصائدهم المدحية ، وأخيرا أشرت إلى ظاهرة المعارضات الشعرية والنثرية التي انتصر فيها بعض الشعراء لنور على نور ..إلخ .

وفي الفصل الثالث تناولت القيمة الأدبية والنقدية لكتاب البديع .. ، فبينت أهمية التعليقات التي سطرها أبو الوليد إما تعقيبا على بعض المختارات ، أو تمهيدا شارحا لمناسباتها ، وعن أهمية المختارات ونفاستها ، وتفرد أبي الوليد بروايتها وحفظها من الضياع والنسيان ، وإشاراته إلى مكانة بعض الشعراء والكتاب الذين أثبت مختارات لهم ، وكذا تسجيله لكثير من الظواهر الأدبية والتعليقات النقدية التي تكشف عن كثير من ظواهر الأدب الأندلسي وخواصه الموضوعية والأسلوبية .

وفي الخاتمة لخصت أبرز ما توصلت إليه من ثنايا دراستي هذه .

والله أسأل أن ينفع بها قراء العربية ومحبي أدبها .

❁❁❁

تمهيـد :

يتصـل الشـعر بالطبيعـة اتصـالاً وثيقاً، فالطبيعـة مصـدر إلهـام للشـعراء، يأوون إليها متأملين ظواهر الحياة والكون، ويفزعون إليها مستلهمين وحيّ الشعر.

ودراسة الطبيعة لدى فريق من النقاد «هي دراسة كل عمل الشعر تقريباً لأن الشعر هو (صورة الطبيعة). (١)

وشعر الطبيعة هو الشعر الذي يمثل الطبيعة أو بعض ما اشتملت عليه، وهو الذي يتخذ من عناصر الطبيعة الحّية والطبيعة الصامتة مادته وموضوعاته.

وقَلمّا خَلا أدب أي أمةٍ من شعراء أحبوا طبيعة بلادهم، وتغنوا بها في أشعارهم، تعبيراً عن انفعالهم بمشاهدها، أو تمجيداً لها، أو إظهارا لمدى قدرتهم على التصوير.

والأدب العربي كأيّ أدب آخر لم يخل من شعراء تطرقوا في شعرهم إلى وصف كل ما وقع عليه حسهم من مشاهدة الطبيعة في بيئاتهم وعصورهم المختلفة.

والشاعر العربي فنان مبدع يرسم ما يرى، ويصور ما يشاهد، ويصف ما يحس من فنون الطبيعة.

والمتتبع لنشأة الوصف في الشعر العربي يرى أنه اللون الغالب على الشعر القديم فلم يخل الشعر الجاهلي من وصف الرياض والأزهار، ولاسيما في أقوال الشعراء الذين خالطوا الحضارة ورأوا البساتين الخضراء في الحيرة أو غوطة الشام، أو غيرها من مدن العراق.

(١) شعر الطبيعة في الأدب العربي/سيد نوفل/٢٣/ط/الثانية دار المعارف بمصر والأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر/ محمد رجب البيومي/٦٣/ط: مكتبة الدار العربية للكتاب.

بيد أن وصف الطبيعة غدا لدى شعراء الأندلس فنا قائما بذاته ؛ إذ افتنوا فيه، وبرعوا في تدبيج لوحات منه بقيت على مدى الدهر شاهدا على براعتهم من جهة، وعلى روعة الطبيعة وجاذبيتها في ربوع بلادهم من جهة أخرى.

والرسالة التي أعرض لها في هذا البحث (أو التي سماها صاحبها كتابا) وعنوانها " البديع في وصف الربيع ـ تأتي تأكيدا للظاهرة التي أشرت إليه وهي كثرة ما أبدعه الأندلسيون في وصف الطبيعة وخصوبة وتنوع إبداعاتهم فيها.

كانت الأندلس .كما هو مشهور .تزهو بطبيعتها الجميلة، وأرضها الخصبة وأنهارها الجارية، ومشاهدها الساحرة، ومجاليها الفاتنة وهي بحق أيكة وارفة الظلال، دانية القطوف، يانعة الثمار، تنتصَب فيها الجبال، وتمتد في بطاحها السهول والوديان، وتجري فيها الجداول والأنهار وتغرد على أفنان أشجارها الأطيار، وتسرح في مروجها الجميلة قطعان الأنعام، وجماعات الغزلان، وتهب النسائم في أرجائها رخية ندية تحمل في أعطافها شذى الورود وعمق الزهور، وسحر العبير.

لقد ملكت هذه المفاتن الطبيعية نفوس الشعراء في الأندلس، فغذت قلوبهم بالجمال، وأمدتهم بواسع الخيال، وخلبت ألبابهم بروائع الرياض، وبدائع الجنان، ومباهج الخمائل، ومفاتن الجداول، فسمعوا منها تهامس الأشجار، وتناجي الأطيار، وخرير الأنهار، وعذب الألحان.

وللجمال الطبيعي في ذاته مزاياه التي تنبه الخواطر وتوقظها، وتهذب الخيال وتخصبه وتنميه، فإذا تجاورت منه أنماط مختلفة، وتجمعت في إطاره صوره المتنوعة، كان من غير شك إيقاظا للحس والشعور وأقوى تنمية للخيال، وأبعد مدى في توسيع آفاقه.

وهكذا كان شأن الطبيعة في الأندلس، إذ نضحت على الأدب من جمالها ووفرت نصيبه من الخيال السامي، فاكتسي الشعر روعة وسحرا وأوشك النثر أن يحور شعرا. (١)

وكثر شعراء الأندلس الذين تغنوا في طبيعة بلادهم، وكان في كل مدينة من مدائنها شعراؤها الذين أحبوا طبيعتها، وتغنوا بجمالها في أشعارهم.

وقد لاحظ أبو الوليد الحميري مؤلف الكتاب مدى تعلق الأندلسيين وهو واحد منهم بطبيعة بلادهم، وما تعج به من مظاهر الجمال والروعة في حدائقها الغَنَاءَ وجناتها الفيحاء، التي أكسبتهم رقة المشاعر والأحاسيس، وغرست في نفوسهم حب التنزه في البساتين والحدائق للتمتع بما فيها من روائع الزهور والأنوار، التي تثير في ذوي المواهب الإحساس بالجمال، فيجري الشعر على ألسنتهم عذباً سائغاً، يصفون ما يشاهدون من مجالي الربيع في طبيعة أرضهم الخصبة الفاتنة.

وكان لهم من ذلك نصيب وافر من الأدب الرفيع، والشعر البديع، غير أن العناية لم تتجه إلى جمع شتاته في مؤلف مستقل، مما حمل صاحبنا أبا الوليد الإشبيلي أن يفرد لهذا الموضوع رسالته هذه وسما " البديع في وصف الربيع " واستهدف منها تسجيل أجمل ما سمع، ويجمع فيها كل ما وقع تحت يديه أو تناهى إلى علمه من وصف الربيع وما يزهر فيه من نور، وما فتن به الشعراء، أو سطره الكتاب من وصف النواوير والأزهار. يقول مؤكدا ذلك في مقدمة مؤَلَّفه:

(١) أدبيات أندلسية «دراسة تاريخية أدبية نصية تحليلية »/ د : عبد الله حسين ٤٠، و الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة/د : أحمد هيكل/صـ٢٨ ط : السادسة – دار المعارف بمصر ١٩٧١ م.

« فإن أحق الأشياء بالتأليف، وأولاها بالتصنيف ما غفل عنه المؤلفون، ولم يعن به المصنفون، مما تأنس النفوس إليه، وتتلقاه بالحرص عليه، وفصل الربيع آرج وأبهج وآنس وأنفس، وأبدع وأرفع من أحد حسن ذاته وأعد بديع صفاته وهو مع هذه الصفات الرائقة، والسمات الشائقة، والآلات الفائقة لم يعن بتأليفه أحد، ولا انفرد لتصنيفه منفرد، فلما رأيت ذلك جمعت هذا الكتاب مضمناً ذلك الباب » (١).

وأبو الوليد كما رأينا من فحوى كلامه معنيٌّ بإبراز مواهب الأندلسيين، في هذا الباب يقول :

« فلما رأيت ذلك جمعت هذا الكتاب، ولست أودعه إلا ما أذكره لأهل الأندلس خاصة في هذا المعنى، إذ أوصافهم لم تتكرر على الأسماع، ولا كثر امتزاجها بالطباع، فتردها شيقة، وترودها تيقة... وأما أشعار المشرق فقد كثر الوقوف عليها، والنظر إليها حتى ما تميل نحوها النفوس، ولا يروقها منها العلق النفيس، مع أني أستغني عنها ولا أحوج إليها بما أذكره للأندلسيين من النثر المبتدع والنظم المخترع وأذكر ذلك لأهل عصري، إذا لم تغب نوادرهم عن ذكرى... ولأهل المشرق في تأليف أشعار شعرائهم وتدوين أخبار علمائهم الفضل علينا، والسبق لنا، حتى لقد يجمعون خشينها مع حسنها ويضفون لحنها إلى لحنها، لا قلة ميز بها، بل تحرجاً عن تركها، ولو جرى أهل الأندلس على تلك الطريقة لأوردت على الحقيقة أمثال ما أوردت.... لكن أهل المشرق على تأليفهم لأشعارهم وتثقيفهم لأخبارهم منذ تكلمت العرب بكلامها، وشغلت بنثرها ونظامها إلى هلمّ جرا، لا يجدون لأنفسهم في التشبيهات في هذه الموضوعات ما وجدته لأهل بلدي » (٢).

(١) البديع في وصف الربيع/أبو الوليد الاشبيلي /١.
(٢) البديع في وصف الربيع /٢.

تعريف بالمؤلف:

هو إسماعيل بن محمد بن عامر بن حبيب....وأجمعت المصادر على أن كنيته « أبو الوليد » [1]. ويتصل نسبه بإحدى القبائل اليمنية المعروفة التي تنسب لحمير بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

كان والده " محمد بن عامر " من ذوى الجاه والثراء والمكانة العالية بإشبيلية في زمن القاضي بن عباد، وقد مدحه كثير من شعراء العصر، من مثل : أبي جعفر بن الآبار، وابن القوطية أبى بكر بن نصر إذ يقول :

أُنس المعالي بابن عامر الذي عمرت بدولته منازلها الدّرُسْ

ويقول عنه الفقيه أبو الحسن بن علي :

عزة في طباعه وعلو قد أنافا به على العلياء (٢)

ولأبى الوليد أخ ذو مكانة هو « أبو زيد محمد بن محمد بن عامر» وكان يحتل مكانة علمية مرموقة، إذ كان شيخا من شيوخ أبي بكر بن العربي الذي يُعد من العلماء المشهورين في تلك الفترة.

نشأ أبو الوليد بإشبيلية، وكانت وقتئذٍ مصدر إشعاع للعلم والثقافة ومهوي أفئدة العلماء والأدباء والشعراء، حيث كانت تستظل بحكم بني عباد.

ويُعد القاضي محمد بن إسماعيل بن عباد المؤسس الفعلي لدولة بني عباد وعلى يديه قام كيانها الكبير، وظل يرعاه إلى أن أدركته المنية سنه ٤٣٣ هـ.

... وتعاقب عليه من بعده أبناء بني عباد، ومن أبرزهم «أبو عمرو عباد بن محمد بن إسماعيل» الملقب بالمعتضد بالله.

---

(١) انظر الذخيرة/القسم الثاني/المجلد الأول/١٢٤ ونفح الطيب/جـ٣ صـ٤٢٧ والجذوة/١٥٢ والتكملة/جـ١ صـ١٨٠ وتاريخ الأدب العربي/د : عمر فروخ جـ٤/٤٩٤.

(٢) البديع في وصف الربيع /٥٤.

«وكان أبو عمرو بن عباد محباً للعلم والأدب.. يقول عنه لسان الدين الخطيب : كان أبو عمرو بن عباد صاحب إشبيلية من أهل الأدب البارع والشعر الرائع، والمحبة لذوي المعارف، وقد رأيت له سفرا صغيرا في نحو ستين ورقة من شعر نفسه.

..وتوفي رحمه الله سنة إحدى وستين وأربعمائة، بعد ولاية دامت زهاء ثمانية وعشرين عاما » (١).

عاش أبو الوليد حياة رغدة في ظل ظروف اقتصادية جيدة، فكانت إشبيلية تتمتع بأرض خصبة، وماء غزير، وخير وفير، ولكنها مع هذا الرخاء الاقتصادي لم تسلم من المناوشات العصبية بين عناصر المجتمع وفئاته شأنها شان أغلب أمصار الأندلس وأقاليمه. وقد انعكست هذه الأوضاع على حياة الفرد، فأثرت في سلوكه ومشاعره وعاش أبو الوليد هذا الإحساس المتأرجح المتوتر، ولكنه اتجه بقلبه وإحساسه، ومشاعره إلى الطبيعة الساحرة، وأخذ ينظر بعينيه إلى جمالها الرائع، وقد وصف تلك الروعة، وسجل هذا الجمال في كتابه. وعلى الرغم من ذلك كله فقد بقيت إشبيلية ميدانا فسيحا للفكر والثقافة، وأفقا رحبا للعلم والمعرفة والأدب والفن، وعاون على ذلك الازدهار الأدبي والثقافي حكامها من بني عباد ؛ إذ شجعوا على ذلك وأغدقوا على العلماء والأدباء، وقلَّ أن نجد من أسرة« بني عباد» وأمرائهم من لا يقرض الشعر، أويجالس الشعراء والأدباء.

شخصيته:

تمتع أبو الوليد بشخصية متعددة العلاقات، حيث اتسعت صلاته المرموقة في المجتمع الإشبيلي من الحكام والوجهاء والوزراء والشعراء والأدباء كالقاضي. أبي القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد «ذي الوزارتين» الذي أهدي له أبو الوليد كتابه، وأبو بكر بن نصر، الوزير عامر بن مسلمة وغيرهم.

(١) إعمال الأعلام/١٥٦.

..ومن خلال كتاب البديع، تتجلى لنا شخصية أبى الوليد حيث اتسم بمواهب وقدرات فائقة جعلته مصدر إعجاب للآخرين ومن هنا وجدناه يتقلد بعض المناصب الرفيعة وهو في سن صغير.

يقول صاحب نفح الطيب:

«استوزره قاضي إشبيلية «عباد » جَد المعتمد ولم يزل يصغى إلى مقاله، ويرضى بفعاله، وهو ما جاوز العشرين إذ ذاك »[(١)].

فأبو الوليد لم يكن مؤلفاً أو مبدعاً فحسب، بل كان سياسياً محنكاً وهو بعد حديث السن، ويمكننا القول بأن ما وصل إليه من مناصب سياسية، وخبرة بهذه الأمور يرجع الفضل فيها إلى أبيه.

يقول الحميري في الجذوة :

«أبو الوليد الكاتب بإشبيلية، له ولأبيه قَدَمٌ في السياسة والأدب» [(٢)].

ومن خلال ما أورده من ترجموا له يتبين لنا أنه كان آية في الذكاء والفهم والبلاغة وتجويد الشعر على حداثة سنه، فكان يقرض الشعر الفائق، وهو لم يتجاوز سبع عشرة سنة من عمره، فهو شاعر وكاتب موهوب منذ نعومة أظفاره.

وعمل أبو الوليد على اكتمال ونضج هذه الموهبة بحضوره مجالس الشعراء والأدباء يطلع على آثارهم، ويستمع إليهم، ويسير على دربهم، ومن أكثر من صقلوا موهبته، وأفادوا شاعريته، الأديب الإشبيلي أبو جعفر بن الآبار فهو :

« الذي أقام قناته، وصقل مرآته، فأطلعه شهابا ثاقبا، وسلك به إلى فنون الآداب طريقاً لاحباً » [(٣)].

---

(١) انظر : نفح الطيب/جـ٨/٤٢٨.

(٢) الجذوة/٢٩٥.

(٣) الذخيرة/جـ١/١٢٥ .

وأكثر الفنون الأدبية التي نبغ فيها أبو الوليد هو«وصفه للربيع» ودقته في وصف الأزاهير والأنوار.. يقول المقري :

« وأكثر نظمه ونثره في أزاهر، وذلك يدل على رقة نفسه » (١).

هذا إلى جانب امتلاكه لبعض هذه البساتين الزاخرة بالأزاهر إذ يقول :

« وخرجت متنزها في زمن الربيع إلى ضياعي، فكتبت منها إلى صاحب الشرطة، أبي الوليد ابن العثماني قطعة نثر ».

وما كتبه أبو الوليد من نثر يتمثل في مجموعة رسائل رائعة كتبها وأودعها في كتابة ومن أبرزها رسالته البديعة، التي رد فيها على رسالة « أبي حفص بن برد، والتي جاءت بأسلوب قصصي عن طريق المناظرة والمحاورة والمراسلة بين الأزهار والنواوير.

لقد كان أبو الوليد الحميري... شخصية متعددة المواهب والملكات عرفناه وهو الإنسان والسياسي والشاعر والكاتب والمؤلف والمبدع. واستطاع أن يكون متميزاً ومتفرداً عن غيره من أبناء عصره بذكائه وموهبته وسعيه لطلب العلم والأدب ونبوغه وحبه لموطنه " إشبيلية " وطبيعتها الساحرة.

❁❁❁

(١) نفح الطيب/جـ٨/٤٢٩.

كتاب البديع (عرض موجز) :

كتاب «البديع في وصف الربيع» هو مجموعة مختارات شعرية ونثرية في موضوع بعينه وهو «فصل الربيع»، وما يرفل به من مظاهر الجمال في أزهاره، وأنواره الفواحة بأطيب أريج، والمبهجة المؤنسة لكل نفس.

والمختارات الشعرية أغلب عليه، فقد أورد من الشعر ما يقرب من أربعين ومئتي مقطوعة (٢٤٠) لطائفة من الشعراء الأندلسيين من أبرزهم :

الوزير أبو عامر بن مسلمة، والقاضي ذو الوزارتين أبو القاسم محمد بن عباد وابنه إسماعيل بن محمد ابن عباد الحاجب، وذو الوزارتين أبو عمرو بن عباد وأبو الحسن بن علي الفقيه، وأبو بكر بن القوطية، وأبو جعفر بن الآبار وابن دراج القسطلي، وعبادة بن عبد الله بن ماء السماء وعامر بن شهيد، وأبو الأصبغ عيسي بن قزمان.....الخ ».

أما النثر فلم يكن له ما كان للشعر من نصيب وافر، وعدد الرسائل التي أوردها المؤلف أربع عشرة رسالة، منها رسالة لذي الوزارتين القاضي بن عباد، وأخرى لأبي اسحق بن الحمام، ورسالتان لعمر بن هشام، ومثلهما لأبي الوليد العثماني ورسالتان لأبي مروان عبد الملك، وأبى حفص أحمد بن برد.

ولأبي الوليد نصيب مما أثبته فله أربع رسائل من أهمها رسالة في "تفضيل البهار على الورد وسائر الأزهار" وهي أطول رسالة في الكتاب.

هذا وقد أفاض أبو الوليد في إثبات المختارات الشعرية والنثرية التي فيها وصف للأزاهير[١] والأنوار من مثل وصفه (للآس، والأقحوان والباقلاء والبهار والجلنار والخيري الأصفر، والخيري النمام، والسوسن والشقائق والورد، والنرجس،

(١) البديع في وصف الربيع /تحقيق : د : عبد الله عبد الرحيم عسيلان/٧٦ ط : دار المدني ١٩٨٧.

ونور الرمان، نور الكتان، ونور اللوز والنيلوفر، والورد، والياسمين). وأنهى أبو الوليد ما جمعه ودونه من مختارات بقوله :

«هذا ما عثرت عليه، وانتهيت البحث إليه، وإن وقع إليّ بعد وصف رائق، أو معنى فائق، ألحقته في هذا الكتاب، ووضَعته بموضعه من كل باب، والبشر غير معصوم، ومن بذل جهد نفسه فليس بمذموم، وحسبي أني قد جمعت من غرائب الأندلسيين و نوادرهم، وأوردت من فضائلهم ومآثرهم ما يمكن أن يتغمد به، ويصفح من أجله عما عرض من زلل، أو وقع من خطل، فربما أدخلت من أهل عصري ما يقرب في البديع، ولا يبعد عن الرفيع » [1].

❁❁❁

(١) البديع في وصف الربيع/صـ١٣٨.

الفصل الأول
اختيارات أبي الوليد
ومنهجه في تقسيمها

لعل من أبرز ما يميز مسلك ابي الوليد الحميري في كتابه " البديع في وصف الربيع " أنه بدأ في الفصل الأول موردا الأشعار والرسائل الأدبية التي تناولت فصل الربيع على سبيل العموم، ثم اقتصر في الفصل الثاني على الأشعار والقطع النثرية التي تتناول لونا أو ألوانا من الزهور التي ترتبط بفصل الربيع، وهو بذلك انتقل من العام إلى الخاص، لينقلنا بعد ذلك في الفصل الثالث إلى الأخص وهو التركيز على نوْرٍ واحد دون ما عداه. وكأنه يقدم لقاريء كتابه أطيافا متنوعة مما يرتبط بالربيع ويشكل مكونات روعته وبهائه.

وبذلك يكون أبو الوليد قد طوف بقاريء كتابه حول فصل الربيع وجمع أبرز ما قيل فيه من شعر رائق أونثر بديع، وقصر كتابه على ما أبدعه معاصروه ومن سبقوه من أهل الأندلس خاصة.

أولا : **مسلكه في الفصل الأول** :

اعتاد أبو الوليد أن يقدم للأشعار أو النصوص النثرية التي يوردها معرفا بقائلها وقد يبدي رأيه فيها اسحسانا أو غيره، وقد يذكر مناسبتها أو المصدر الذي اخذها منه، وقد يعقب عليها ناقدا موجها، أو شارحا مفسرا، أو موازنا... المهم أن شخصيته حاضرة في كتابه من مبتدئه إلى منتهاه. وهذا الحضور من المؤلف أضفى على صنيعه مسحة نقدية واعية وحسا فنيا لماحا جعل كتابه لا تقتصر أهميته عل إيراد النصوص والشواهد وحسب بل تتعدى ذلك إلى الدرس الأدبي النقدي المهم الذي يثري قارئه بفيض من المعارف التي تخص شعر الطبيعة بصفة عامة وولوع الأندلسيين به على وجه الخصوص.

ومن النماذج التي استحسنها أبو الوليد قول أحمد بن عبد ربه [(١)]واصفاً الربيع:

وروضـــةٍ عَقَدت أيـــدِي الربيـــع بهـــا	نـــوراً بنـــور وتزويجـــاً بتـــزويجِ
بِمُلْقِـــح مـــن سَـــوار بهـــا ومُلقحَـــةٍ	ونـــاتج مـــن غواديهـــا ومنتـــوج
تَوشـــحت بمُـــلاة غـــير مُلْحمـــةٍ	مـــن نْورهـــا ورداءٍ غـــير منســـوج
فألبســـتْ حُلـــل الموشـــي زهرتَهـــا	وجَلّلتهَـــا بأنمـــاط الـــديابيج(٢)

استحسن أبو الوليد هذه المقطوعة لما رأى فيها من جمال في المعنى ورقة في الألفاظ وروعة في التصوير، فقد عقد الربيع على هذه الروضة من جماله وبهائه، حتى توشحت برداء حرير سندسي، يزينه أنوار زاهية وأزاهير بهية فاتنة. ومن غريب الوصف في عجيب الرصف ما نقله عن أبي عمر أحمد بن فرج الجيّاني. إذ يقول في وصف الربيع :

أمـــا الربيـــعُ فَقـــدْ أراكَ حـــدائقاً	لِبســـتْ بهـــا الأيـــامُ وَشْـــياً رائقـــاً
فكأنمـــا تجتّـــر أذيـــالَ الصّـــبا	فيهـــا البُـــروقُ أزاهـــراً وشـــقائِقا
منقســـمات بينهـــا وســـمَ الهـــوى	تحكـــي المشـــوق تـــارة والشـــائقا
مِـــنْ قـــاني خجـــل وأصـــفر مُظهـــرٍ	للوجـــدِ كالمعشـــوقِ فاجـــا العاشِـــقا
وكأنمـــا نثـــرتْ علـــى أجفانِهـــا	غُـــرَّ السَـــحَائبِ لؤلـــؤا مُتناسِـــقا
فـــإذا الصـــبَّا لِعبـــت بـــه في روضـــةٍ	ذُكـــر الفـــراقُ بهـــا بكـــاً وتعانقـــا (٣)

---

(١) هو. أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم مولى هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان، صاحب « العقد الفريد ».
(انظر ترجمته : معجم الأدباء – لياقوت الحموي ط : الطبعة الأولى).

(٢) الديابيج : جمع ديباج وهو الحرير الغليظ .

(٣) البديع في وصف الربيع/أبو الوليد الحميري/٦.

ومما أشار إليه من غرابة في هذه الأبيات، ما وجده من تشبيه اضطراب النوار بالرياح، وقرب بعضها من بعض، وسقوط الندى منها بذلك الاضطراب بالتعانق عند الفراق، والبكى من أجله.

ويذكر لأبي عمر أيضاً قطعة غريبة التشبيهات هي :

يـــا غـــيمُ أكـــبرُ حـــاجتي ... سُـــقْى الحمـــى إن كنـــت تُســـعِفْ
رَشّـــف صـــداه فطـــال مـــا ... روَّى الصَّـــدى فيـــه الترشـــفْ
واخلـــع عليـــه مـــن الربيـــ ... ـــع ووشـــيْه بُـــردا مصـــنفْ
حتـــى تُـــرى أنـــوارُه ... وكأنهـــا أعشـــارُ مُصْـــحَفْ

ومما التزمه أبو الوليد الاجتزاء بالأبيات التي تحمل الشاهد إذا كان النص المنقول منه مطولا، مثل قصيدة أبي عامر بن شهيد،والتي اقتصر منها على هذه الأبيات :

سَـــهِر الحيـــا برياضِـــها ... فأســـالها والنَّـــوْرُ نـــائمْ
حتـــى اَغتـــدْت زَهَراتُهـــا ... كالغِيـــدِ بـــاللُّجَجِ العـــوائمْ
مِـــنْ ثيبـــاتٍ لم تُبـــل ... كشْـــفَ الخـــدود ولا المعاصـــمْ
وصِـــغارٍ أبكـــارٍ شـــكت ... خَجَـــلاً فعـــاذت بالكمـــائمْ
حَيِيَـــتْ بطوفـــان الحيـــا ... فتضَـــاحكتْ والجـــوُّ واجِـــمْ
أصـــنافُ زَهْـــر طُوّقَـــتْ ... دُرَراً تـــذوب بكـــف نـــاظِمْ
مِـــن باسِـــم بـــاكٍ إليـــ ... ـــك نـــدٍ وبـــاكٍ وهـــو باســـمْ (١)

(١) البديع في وصف الربيع/١٦.

وقد يفسر بعض الكلمات أو يوضح بعض الصور كما صنع مع هذه القطعة من شعر أبي أيوب سليمان بن بطال المتلمس(١):-

تبدَّتْ لنا الأرضُ مَزْهُوَّةٌ عليْنا ببهجةِ أثوابِها

كأنّ أزهارها أكؤُسٌ حَدَتها أنامل شُرَّابِها

كأنّ الغصونَ لها أذرعٌ تُناوِلها بعضَ أصحابِها

وقد أعجب النوَّر فيها الذباب فيهزج مِن فرطِ إعجابِها

كأنّ تعانقها في الجَنُوبِ تعانُق خَوْدٍ وأترابِها

كأنّ ترقرق أجفانِها بُكاها لِفُرقةِ أحبابِها(٢)

إذ عقب عليها قائلا :

مزهوة : أيّ مفعولة من الزهو ومعناه متعجبة من حالها، متكبرة لجمالها. وترقرق الأجفان : امتلاؤها بالدمع، واستعارها للنور أجفاناً.

❁❁❁

وقد يستحسن أبو الوليد الشعر أو المثال الذي يورده دون شرح أو توضيح، ولكننا عند إنهعام النظر ودقة التأمل نراه حافلا بصنوف البراعة وحسن

(١) هو : أبو أيوب سليمان بن محمد بن بطال البطليوس، المعروف بالمتلمس، فقيه مقدم وشاعر محسن كثير الشعر وهو صاحب كتاب « الأحكام فيما لا يستغنى عنه الحكام ». (انظر ترجمته : جذوة المقتبس/٢٢٢، ونفح الطيب/٣/٢٩٢).

(٢) البديع في وصف الربيع/١٣.

التأتي مثال ذلك ما قاله عن مقطوعة «محمد بن مسعد البجّانيّ» (١)، إذ ذكر أنه أَحَسَنَ في الوصف كل الإحسان إذ يقول واصفا الربيع وما ألبسه على الطبيعة من جمال:

أما ترى الأرضَ أُلبستْ حُللاً ... من نسيج أيدي السحائبِ الصُوَّبْ
كأن أشجارها وقد كسيتْ ... بدائعاً من حُليّها المعجِبْ
من أحمرٍ كالعقيق منظره ... وأصفر كالفريد لم يُثْقَبْ
وأبيض فوقَه سقيط ندي ... كماءِ وردٍ في عنبر أشهبْ
وثمرَ في الغصونِ تحسبُه ... جامِدَ خمر في الجو لم يُسْكبْ.
أو أنجم الشرق بَانَ مَطْلعُها ... فسِرنَ من مشرقٍ إلى مَغْرِبْ
خرائدٌ يلتقين في عُرُس ... تَسكُنَّ حيناً وتارة تلعَبْ
والماء يجري خِلال ساحتِها ... كأنه جسْمُ فِضةٍ ذُوّبْ
وللصبا نفحة تذكرنا ... طِيب نسيم الصبا فمَا أطيَبْ
والطير في أيكها مغردة ... كأنها في منابر تخُطبْ
أعجب بها من نواطق خُرس ... تُوجزُ حيناً وتارة تُسْهِبْ
تفهمني عُجْمةٌ بألسُنها ... معنى الكلام المبين المعرب(٢)

---

(١) هو : عبد الله بن مسعود الغساني البيجاني، أصله من بجانه، كان شاعرا مشهورا كثير الشعر، مليح الغزل، طيب الهزل. (انظر ترجمته : جذوة المقتبس/٩٢. رقم/١٤٨).

(٢) البديع في وصف الربيع/١٣.

استحسن أبو الوليد هذا الشعروهو فيما نرى صورة حيّة تمثل جمال الطبيعة الساحر وقت الربيع، فَهيّ تشبه لوحة فنية مكتملة في عناصرها.. بدأها الشاعر، بجمال وسحر الأرض وما لبسته من حلل قشيبة، وتوالى الجمال والسحر من الأرض إلى الأشجار وما أثمرته من ثمر مختلف ألوانه فمنه الأحمر والأصفر والأبيض، وينتقل السحر الفتان إلى أجواء السماء حيث النجوم في غدوها ورواحها تسير في نظام ودقة أما عن جريان الماء وتدفقه في الأنهر فهو كجسم فضي بلوري في لونه حتى الطيور لم يترك حديثه عنها، فحكى تغريدها وشدوها، وكأنه يفهم ما تقوله من غناء رغم عُجْمَة ألسنها.

... لقد كان أبو الوليد مُحقاً في استحسانه لهذه الصورة الربيعية البارعة.

❁❁❁

ومما رصده أبو الوليد على ساحة الشعر الأندلسي أنه رأى فريقا من الشعراء درجوا على افتتاح قصائدهم المدحية بالروضيات عوضا عن الطلليات والانتقال منها إلى المديح، وقد أورد شواهد لذلك منها قصيدة لأبي عمر بن يوسف بن هارون [1] يمدح الوزير ابن بلشر إذ يقول :

على روضةٍ قامَتْ لنا بدَرانك ... وقام لنا فيها الذُبابُ بِمُسْمِع

إذا ما شربنا كأسنا صُبَّ فضلُها ... على قصصنا للمُسْمِعِ المتخلع

كأنَّ السحاب الجوْن أعرسَ بالثرى ... فلاحَ شوار الأرض في كل موضع

---

(١) هو : يوسف بن هارون الكندي أبو عمرو يُعرف بالرمادي نسبة إلى موضع في المغرب وهو شاعر قرطبي كثير الشعر سريع القول، مشهور عند العامة والخاصة لسلوكه في فنون النظم. (انظر ترجمته في : الجذوة/٣٦٩ رقم ٨٧٨/والبيان المغرب في أحبار الأندلس والمغرب/لابن عذار المراكشي/تحقيق : ليفي بروفنسال – دار الثقافة بيروت/جـ١/٣٩٢).

رياض يُضَاحِكن الغزالة بعدما ... بكت فوقها عين السماءِ بأربع
كأنَّ سرورَ الأرض حُزْنُ سحابها ... إذا ما بكت لاحتُّ لنا في تصنع
حبائب لا يسمحن إلا بلحظةٍ ... وشمَّة أَنْفٍ للمحب المتع
بدائع ما أهدي الوزيُر بنانَهُ ... إلى صَكّه إلا أتانا بأبدَع

ويعقب أبو الوليد على هذه الافتتاحية الروضية قائلاً: شبه الشاعر خط ممدوحه بالربيع في حسن منظره، وجمال مخبره، وأثنى على حسن تخلصه من وصف الطبية إلى المدح واستحسنه.

وكذلك الشأن في صنيع أبي عمر الرمادي، الذي قدم مديحه بمقدمة وصفيه وصف فيها الربيع منها هذه الأبيات :

تأمل بأثر الغيم من زهرة الثرى ... حياة عيون من تن قبل التنعم
كأنّ الربيع الطَّلق أقبل مَهْدياً ... بطلعةِ معشوق إلى عين مُغْرمِ
تعجبتُ من غوص الحيا في حشا الثرى ... فأفَشى الذي فيه ولم يتكلمِ
كأن الذي يسقي الثرى صَرْفَ قهوةٍ ... تنُم عليه بالضمير المكتمِ
أرى حَسناً في صفحةٍ قَدْ تغيرتْ ... كبشْر بدا في الوجه بعد التجهمُّ
ألا يا سماءَ الأرض أُعطيت بهجةً ... تطالعنَا منها بوجهٍ مُقسَّم
وإن قالت الأرضُ المنعم أرضها ... لي الفضل في فخري عليك فسلمي
فخضرة ما فيها يفوقك خضرة ... ونوّارها فيها ثواقب أنجم
وإن جئتها بالشمس والبدر والحيا ... مفاخرةً جاءت بأسنى وأكرم

يعبد العزيز بن الخلائف والذي جميع المعالي ينتمي حيث ينتمي(١)

بيّن أبو الوليد المسلك الذي اتبعه الشاعر في هذه القصيدة، حيث قدم لمديحه بمقدمة وصفية وعقد مفاخرة بين السماء والأرض، وذكر ما ورد فيها من غريب المعنى تمثل في قوله : كأن الذي يسقي الثرى صرف قهوة البيت فقد شبه فيه إفشاء الأرض نوارها وخضرتها بالمطر، بإفشاء المرء أسراره المكتومة بالقهوة، وقوله : بوجه مقسم أي محسن من القسام وهو الحسن وقوله : ينم مستقبل من النميمة، وقوله : فسلمي وقد أراد : فأذعني لها وأقرِّي بفضلها.

ويكثر أبو الوليد من هذه النماذج التي تؤكد شيوع تلك الظاهرة . ظاهرة الافتتاحيات الروضية . لدى شعراء الأندلس فيورد مثالا من شعر الفقيه أبى الحسن بن على[٢] ممزوجاً يمدح الوزير أبي بكر عبد الله ابن ذي الوزارتين القاضي – أعزهما الله – وهو :

قَدْ قلتُ للروض ونواره نوعانِ تبريٌّ وفِضيّ
وعَرفه مختلفٌ طِيبُه صِنفْانِ خَمري ومِسْكِيّ
ووَجْه عبد الله قَدْ لاح لي وهْو من البهجةِ دُرِيّ
شِم غرسَكِ الأرضي إن الذي أبصرته غَرسْ سماوِيّ
حسنُكَ نَورِي بلا مِرْيةٍ وحُسُن عبد الله نورِيّ
أضْحَى صغيراً وهو في قدرِه نيلاً كبير الشأن عُلوِيّ

(١) البديع في وصف الربيع/١١.

(٢) هو : على بن عبد الله المعروف بالإستجي، وهو من أهل الأدب والعلم وكان فقيها نحويا من أهل قرطبة، وسكن أشبيلية. (انظر ترجمته : الذخيرة/جـ١/٢٠٠).

اعتمد المؤلف في هذه الأبيات على التلقي المباشر، الناتج من إنشاد الفقيه أبى الحسن لها ؛ وقد قدم لقصيدته المديحية بمقدمة وصفية، وصف فيها الربيع، من روض، ونوَّر، وقد قسمها إلى تبريّ أيّ ذهبي وفضي لبريقهما ولمعانهما، ويحسن الشاعر تخلصه من الوصف إلى المدح، حيث مدح عبد الله ابن ذي الوزارتين ووصفه بالجمال والبهاء والكرم والعطاء.

.. وقد عقب أبو الوليد على هذه الأبيات قائلاً :- «معني القطعة أنيق ومغزاها دقيق »

❁❁❁

وما أرحب هذا الفصل – الربيع – ونحن نتجول في رياضه وبساتينه، ننعم بالطبيعة الساحرة، ونسعد بالأزاهير المتفتحة، ونستمتع بشدو الطيور تغني فرحة بجمال الطبيعة وسحرها، وها هو ذا.. أبو جعفر بن الأبار الشاعر العالم الذي أطلق على فصل الربيع «ملك الفصول ».

يقول هذه القطعة وصولاً لمديح الحاجب وهي :

لَبِس الربيعُ الطلق بُرْدَ شبابه ... وافتَّر عن عُتباه بَعد عِتابِه(١)

ملكِ الفصول حَبا الثرى بثرائِهِ ... مُتبرجاً لِوهادِه وهضَابِه(٢)

فأراكَ بالأنوارِ وَشَّى بروده ... وأراك بالأشجارِ خضر قِبابِهِ

أمسى يذهبها بشمس أصيله ... وغدا يُفضضها بدمع جنابِه

بالحاجب المأمول أضحك ثغره ... فرحاً وأُنطِقَ جَهْرُنا بصوابِهِ

هزّ الصّعاد(٣) فأرعدت من خوفه ... وعلا الجيادَ فأصبحت تزهى بِهِ(١)

---

(١) عُتباه : رضاه، وعتابه : سخطه.

(٢) وهاده : المواضع المنخفضة، ونجاده : المرتفعة.

(٣)هز الصعاد : جمع صعد، وهي القناة الثابتة مستقيمة لا تحتاج إلى تقويم.

ويقول أبو الوليد : لأبي جعفر بن الأبار قطع بديعة وكان أكثرها موصولا بالمدح وهذه قطعة بديعة الغرض، موصولة بمدح أبي – وقاه الله بي– وهي:–

استبشر الدهرُ بعد ما استبصْر … فراق منهُ الرواءُ والمخبرْ
وجَردّ الجوُّ ثوبَ دُكنته … واكتست الأرضُ ثوبها الأخضرْ
وأضحكتْ عن بديع زهرتها … لما بكىَ الغيثُ قبلُ واستعبْر
ما دَرّ دُرُّ الغمام منتثرا … إلا انتحى الروض نظمَ ما ينثر
ولا انتضي البرق فيه أنصُلَهُ … إلا دمُ المحلِ بينها يُهَدرْ
لولا عقيقُ البرقُ حين سري … لم يكن الروضُ يُثمُرُ الجوهرْ
حدائق بل كأنها حَدَقٌ … تهجعُ طورا وتارة تسهرْ
أرضٌ تباهي السماء مشرقة … بكل نجم من زَهرها أزهَرْ
وقبلُ ما فاخرتْ كواكبها … بالغرّ والصّيد من بني حمِيرْ
بكل غيث إذا السماء صحت … وكل ليث إذا القَنا كُسِر(٢)

وهنا نرى الشاعر قد أفاض في وصف الربيع حتى ظننا أن الغرض من القصيدة هو الوصف لا المديح.. فقد بدأها ببشرى قدوم الربيع في وقته مما أضفى سحرا وجمالا في الكون فخلع الجو ثوب دكنته من رياح وأمطار وأعاصير وبرق ورعد وهبت النسائم الرقيقة، والروائح الذكية العطرة على الكون كله.

وتخلص الشاعر من المقدمة الطويلة وصولا إلى الغرض الأساسي وهو مديح محمد بن عامر الحميري، وقد أضفى عليه من الصفات الممدوحة الكثير.

---

(١) البديع في وصف الربيع/١٦.
(٢) البديع في وصف الربيع/٢٢.

ويميز أبو الوليد في سياق كتابه بين الشعر المطبوع والمصنوع، مما يؤكد حضور حسه النقدي ن واصطحاب هذه الرؤية الذوقية فيما يورده من نماذج من مثل قوله : «ومن الصفات المطبوعة في الكلمات المصنوعة، قطعة لأبي الحسن أنشدنيها وهيّ:

وقفتُ على الروض في يوم طش(١) وللدَّجْن ظِلٌّ كظلّ الغَبْشْ(٢)

وقَدْ صقلَ الطلُّ نُوارَه وأَذْهبَ ما فوقَه مِنْ نَمَشْ.

فما غُصْنٌ يشتكي عُطلةٌ ولا شجَرٌ يتشكيَّ عَطَشْ

تري النبت صنفين من بهجةٍ فمن مستقلٍّ ومن مُتْعَرشْ(٣)

ومن لا بسٍ ثوبَ طاؤوسه ومِنْ مترددً بوشى الحنشْ(٤)

وفصَّ من النّور لم ينتقِشْ وثانٍ لطبع المنى قدْ نقش

جمالٌ يُحيّرُ لُبَّ الفتى ويكسبه من سرور دَهَشْ(٥)

ومن المطبوع المصنوع كذلك مقطوعة في وصف الربيع من إنشاد أبى القاسم البَلمى وهى:

انظر ونزه ناظريك بروضةٍ غَنَّاءَ ما زالت تُراح وتُمْطَرُ

لتريك من صنعاء وشيها بمطارفٍ من تُسْتر لا تُسْتَرُ

ألوانها شتى وطيب نسميها يُقضي العبير به ويُنسي العنبرُ

(١) الطش : المطر الضعيف.
(٢) الغبش : بقية الليل أو ظلمة آخره.
(٣) منعرش : يقال عَرّشَ الكرم ارتفعت دواليه على الخشب.
(٤) الحنش : نوع من الحيات.
(٥) كتاب البديع في وصف الربيع /١٦.

وقد يسجل أبو الوليد ما أحاط بالنص الذي يثبته من مكان أو زمان، وأحيانا يذكر ما إذا كان قائله قد أنشده بديهة أو أعده مسبقا، يقول: ولأبي بكر عبادة بن ماء السماء قطعة بديهية هي :

أما تري باكر النّور الذي نجما ... كأنه آيبٌ من غيبةٍ قَدِما
والقطر ساق له والبرق يعجبه ... سقياه فعْله داعي الشرب بالنُّدما
كأنه سِلكُ دُرٍ حُلَّ أو كَلِفٍ ... بكى فلما دَنَا محبوبُه ابتسما
كأن مُبْدِئه في الأفق مُنتثراً ... أعادَهُ في أنيق الروض منتظما
فلا تُردَّ على الساقي حكومَتَهُ ... فإن دينَ الهوى راض بما حكما

وفي موضع آخر يقول : أخبرني الفقيه أبو الحسن بن على قال : كان في داري بقرطبة حائر صُنع فيه مَرجٌ بديع، وظلل بالياسمين، فنزهت إليه أبا حفص التدمري في زمن الربيع، فقال : ينبغي أن تُسمي هذا المرج«السندسة» وصنع على البديهة أبياتا تشاكل هذا الباب، وتطابق غرض الكتاب وهي :

نهارُ نعيمك ما أنفسَهْ ... ورَبْعُ سرورك ما آنسَهْ
تأمل وُقِيتَ ملِمَّ الخطو ... ب فِعْلَ الربيع وما أسسَهْ
بحائر قصرك من صوغه ... دنانيرُ قدْ قارنت أفلسَهْ
وأسطارُ نَورٍ قد استوسقت ... وسطر على الغمرِ قَدْ طلسَهْ(١)
ونبت له مدرع أخضر ... بصفرةِ أصبْاغِه وَرَّسَهْ(٢)

(١) استوسِقت : اجتمعت وانقادت، الغمر : الماء الكثير، ومعظم البحر، طلسه : محاه.
(٢) مدرع : الدراعة والمدرعة : نوع من اللباس أو الثياب.

فأبـــدع مـــا صـــاغ لا كفّـــه أجَـــلّ بدائِعـــه السُندُســـهْ
مَـــدار عهـــا خضـــرة عَضـــةٌ أعـــادَ النعـــيمُ لهـــا مِلْبَسَـــهْ
كـــأنّ الظـــلال علينـــا بهـــا أواخِـــر ليـــل علـــى مُغْلِســـهْ (١)

وربما أشار أبو الوليد إلى من لهم قدم وسبق في باب شعر الطبية كما قدم لقطعة من شعر ابن القوطية بقوله : " ولصاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية في هذا المعنى، الذي عَرِضْتُ إليه في كتابي، وقصدته بتأليفي نوادرٌ مبتدعة، ومعانٍ مخترعة وقطع من السحر مقتطعة ومن بديع ما أنشد فيه قوله :

ضَـحِك الثـرى وَبَـدا لـك اسـتبشارهُ واخضـر شَـارُبه وَطَـرَّ عِـذارُهُ
وربـت حدائقـهُ وآزرَ نبتُـه وتفطَّـرت أنـوارُه وثمـارُهُ
واهتـزَّ ذابـلُ نبـتِ كـل قـرارهِ لَّمـا أتـى متطلعـا آذارُهُ
وتعممـت صُـلع الربـا بنباتِهـا وتَرنَمـت مِـنْ عُجْمـهَ أطيـارُهُ
وكأنمـا الـروض الأنيـقُ وقَـدْ بـدتْ متلونـاتٌ غَضَّـةٌ أنـوارُهُ
بيضـاً وصُـفرا فاقعـاتٍ صـائغ لم يَنْـأ درهُمُـه ولا دينـارُهُ
سَـبَك الخميلـةَ عسـجداً ووذيلـة لمـا غـدتْ شمـس الظهـيرة نـارُهُ
فتوَسـد الديباجـة وافترشـنَّ لـه الـ ـوشى الـذي مـن غـير صْـنع دارُهُ
وتضـوَّعت ريـحُ الريـاض كأنمـا قـتَّ العـبيرَ بأرضـها عَطَّـارُه
فاشْـربْ إذا اعتـدل الزمـانُ ووزنـه وإذا اسـتوي بالليـل نهـارُهُ (٢)

(١) مغلسهَ : جمع مغلس وهو الداخل في الغلس.
(٢) كتاب البديع في وصف الربيع/١٨.

ثم يعقب مفسراً بعض الكلمات يقول : شبه الروض بالصائغ، وأبيض نوره وأصفره بدراهمه و دنانيره. والخميلة مُسترقٌّ الرمال والوذيلة : الصنيعة من الفضة وجمعها على فعائل. ثم يورد لابن القوطية نموذجا يمهد له بقوله : "... وأبدعُ من هذا وأطبع ما أنشدنيه لنفسه :

لما رأى العامُ زمانَ الربيـ ... ـع الطلق قد نشَّر عرف الكِبا
أجْرَى إلى غايته مُجْهَداً ... فكلما رامَ لحاقاً كَبَا
والنوّر قَدْ بتَّ دنانيره ... مفضضا إن شئتَ أو مذهبا
استعمل الحيلة لما ونى ... ولم يجدْ عن قصدهِ مَذهبا
فقال أسلِفْني يوما بشهـ ... ـر فأجَابَتْهُ رياضُ الرُّبا
هذا الرّبا والله في وَحْيهِ الـ ... ـمُنزلِ قدْ حَرَّم فِعل الرّبا

ولم يقتصر أبو الوليد على أشعار معاصريه ومن روى عنهم بل أثبت أشعارا لنفسه منها ما قدَّم لها بقوله : " قلت مقطوعة في وصف الربيع، موصولة بمدح الحاجب – أطال الله بقاءه وحرس حوباءه » وهي :

أبشر فقد سَفر الثرى عن بشره ... وأتاكَ ينشُر ما طوى من نَشْرهِ
متحصنا من حسنه في معقل ... عقل العيون على رِعايةِ زهرهِ
فضَّ الربيعُ ختامهُ فبدا لنا ... ما كان من سَرَّائه في سرهِ
من بعد ما سحب السحابُ ذيوله ... فيه ودَرَّ عليه أنفسَ دُرّهِ
فأحل جفونك فيه تجلَّ صَدا بها ... لولا انبراءُ جماله لم تَّبرهِ
واشكر لآذارِ بدائع ما ترى ... من حسن منظره النضير وخُبرهِ
شهرٌ كأن الحاجب بن محمد ... ألقى عليه مَسحةً من بشرهِ

مَلِـــك تملـــك رِقَّنـــا بمكـــارمٍ   جعلـــت لـــه غفـــر النجـــوم كعفـــرِهِ

لا زال خطـــب زَمانـــه في أســـره   فلقـــد رأيـــت بـــه هـــوايَ بأســـرهِ

ثم يعقب مفسرا ومحللا بقوله :

الغَفر : نجم. والعفر التراب، يقال عَفْرٌ وعَفَر. فكأنه لعلو منزلته وسمو درجته قد استويا في بعدهما منه، وتباينهما عنه.

وأسره في شطر البيت : في ملكه وتحت حكمه من الأسر المعروف.

وبأسره في القافية : بمعنى كله أو جميعه، يقال : أخذت الشئ بأسره أي جميعه.

وتتجلى شاعرية أبى الوليد في هذه الأبيات، حيث بدأ مقطوعته ببشرى قدوم ملك الفصول – الربيع – وما أحدثه من جمال ولكن سرعان ما فضّ الربيع ختامه فبدل الحال ويطلب أبو الوليد في البيت الخامس، بأن نتوجه بالشكر لشهر آذار وما صنعه في الطبيعة من جمال وسحر، ويحسن الشاعر التخلص من المقدمة الوصفَية، وصولا إلى مديحه للحاجب، ذاكرا بأن ما أتى عليه الربيع من حسن وجمال كان للحاجب يد فيه، إذ ألقى عليه مسحِة من بشره فأحدث الجمال والسحر ثم يتابع الشاعر في بقية الأبيات مديحه للحاجب.

وينقلنا أبو الوليد الشاعر إلى مقطوعته الثانية، والتي ظهر فيها نبوغه الشعري.

وقد بينت لنا تعلق أبو الوليد وشغفه بمظاهر الطبيعة التي تبدو في الأندلس وفي موطنه «إشبيلية » بثوبها الأخضر القشيب المنمنم بروائع العرائس والأشجار، الموشى ببدائع الزهور، مما تزخر به حدائق إشبيلية وبساتينها ومتنزهاتها، إذ يقول :

بكـت السـماء فأضـحكت سـن الثـرى   بمـــدامع نظمـــت عليـــه جـــوهرا

فكأنهـــا خَرْقـــاء تنثـــر عقْـــدها   وكأنـــــه مُسْـــــتَغْنِم أن يُنْثـــــرَا

عكفتْ يداه على نظام فريده وجُمانه فَردا لذلك مُشمرَا

وأعادَه أبهى لطرفٍ منظرا وأعدَّه أذكى لأنفٍ مَخْبَرا

فانظر محاسنَ للربيع تبَّرجت لولا الربيع لَمَا تجلت للورَى (١)

وعلى الرغم من أن النماذج التي أثبتها أبو الوليد في كتابه " البديع " من شعره قليلة . إلا أنها تنم عن ملكة شاعرة وحس فني راق، إذ بدت موهبته الشعرية متدفقة ثرَّة، وقد جرَىَ شعره يحاكي الانطباع السائد لدى الأندلسيين بعامة والشعراء بخاصة من أترابه الذين يعشقون مظاهر الطبيعة، ويهيمون بحبها وتشدهم إليها شدا بمناظرها الخلابة، ولا سيما زهورها وورودها الفاتنة التي أصبحوا من فرط معايشتهم لها يتفاعلون معها ويبثون أشواقهم وأحاسيسهم ويستنطقونها بما يعتمل في نفوسهم من مشاعر وإحساسات .

ويبو من سياق كتاب البديع أن أبا الوليد كان محبا للطبية في موطنه متفاعلا معها، فهي تستجيش نفس شاعرنا فتحرك مشاعره وتأجج عاطفته، فيتدفق شعره وينسال انسيالاً عفويا يترجم ما في الطبيعة من افتتان وجمال. ها هو ذا يقول :

« كتب أبو بكر بن نصر قطعة لي في زمن الربيع يسألني الخروج إلى حيث يبدو كماله، ويظهر جماله والقطعة طويلة نذكر منها بعض أبياتها وهيّ:

انظر نسيم الروض رق فوجهه لك عن أسِرَّتهِ السرية يَسْفِر

خَضل بريعان الربيع وقد غدا للعين وهو من النضارة منظر

قد طرزت منه البرودَ وطررت بالوَشْي فهو مُطرَّز و مُطرَّر

أو كالقيان لبسْنَ مَوْشي الحُلى فلهن من وشي اللباس تبختر

(١) البديع في وصف الربيع/٢٤.

أرضٌ مدبجـــة الروابـــي غضـــة الـــ تلعـــات فهـــي عـــن العـــبير تُعـــبر

ويقول :-

حُســـنٌ يقُـــدَّر في الربيـــع ولا تـــرى ذا الحســـن إلاّ في الربيـــع يقـــدر

أنـــوارُ أشـــجارٍ غـــدت أوراقهـــا وَرِقـــاً ترقـــرقَ بالحَبـــابِ فتقطـــر

فـــاسمح لصَـــحْبكَ أَنْ تـــرود رياضَـــها مَعْهـــم فَـــإن عيـــونَهم بـــك تنظـــر

مَهّـــدْ لهـــم نَحْـــو البطـــاح نَزَاهـــةً غَـــراءَ تزهـــى بالســـماح وتَفْخـــر

"... فلما وصلت هذه القطعة إلىَّ ووردت علَىَّ أثارت مني كامناً وحركت ساكنا في ما ندب وحَضَّ عليه. فخاطبت أبي – وقاه الله بي – برسالة فيها بعض أصناف هذه الأوصاف أسأله إباحة الخروج لي فبلغني أملي ».

ثم يقول: والرسالة بعد صدرها :

« لما خُلق الربيع من أخلاقك الغُرّ، وسرق زهرُه من شيمك الزهر، حسن لكل عين منظره وطاب في كل سمع خبره، وتاقت النفوس إلى الراحة فيه ومالت إلى الإشراف على بعض ما تحتويه من النّور الذي كسا الأرضَ حُللا، لا يرى الناظر في أثنائها خللا فكأنها نجوم نثرت على الثرى، وقد ملئت مسكاً وعنبرا، إن تنسَّمتها فأرِجه أو توسمتها فبهجة، تروق العيون أجناسها، وتحيى النفوس أنفاسُها :

فـــالأرضُ في بـــردةٍ مـــن يـــانع الزَّهَـــرِ تُـــزري إذا قســـتها بالوشـــى والحِبَـــرِ

قـــد أحكمتهـــا أكـــف المـــزن واكفـــة وطرزتهـــا بمـــا تُهمـــى مـــن الـــدَّرر

تبرجـــت فســـبت منـــا العيـــونَ هـــوى وفتَنـــةٍ بعـــد طـــول السِـــتر والخفَـــر (١)

فأوجدني بمعانيك سبيلاً إلى إعمال بصري فيها لأجلو بصيرتي بمحاسن نواحيها ".

وهكذا جاءت رسالة أبى الوليد لأبيه، رسالة تشويق ورجاء واستعطاف.... لما بعثه أبو بكر بن نصر في نفسه من إثارة لكوامنه، وتحريك لمشاعره ورجاء.. لأبيه أن يسمح له بالخروج يتجول في رياض البساتين لينعم بجمال الطبيعة التي لا يرى فيها خللا إذ يشبهها بالنجوم التي نثرت على الثرى وقد ملئت مسكاً وعنبراً، ونجده يختم رسالته باستعطاف قائلاً :

فالفضل على أن يكمل أوانه، وينصرم وقته وزمانه، فلا تخلني من بعض التشفي منه لأُصدر نفسي متيقظة عنه فعهدي بمثل ما سألته بعيد، وشوقي إليه شديد والنفوس تصدأ كما يصدأ الحديد، ومَنَّ أجمَّها فهو السديد الرشيد.

وقد مزج أبو الوليد في رسالته بين الشعر والنثر على الرغم من كونها رسالة منثورة إلا أن الشعر برز واضحاً جلياً بين ثنايا المنثور ويبدو أن ما سلكه أبو الوليد في رسالته هو مسلك ساد بين أدباء الأندلس وقتئذٍ وعده البعض من « الظواهر الشائعة والملموسة لدى الكتاب الأندلسيين، إظهاراً لما يتمتعون به من مواهب أدبية متعددة للجمع بين الشعر والنثر، وقد بلغت براعة بعضهم إلى حد لا يكاد المتلقى يدرك التفرقة بين لغة الشعر والنثر » (٢).

❁❁❁

وتبرز رسائل أبى الوليد التي ضمنها كتابه وأكثر من ذكرها في الفصل الأول، حيث اقتصر فيها على ما جاء في « وصف الربيع الذي لم يسم فيه لنّور

(١) البديع في وصف الربيع/٢٦.

(٢) انظر : الأدب العربي في الأندلس/د : عبد العزيز عتيق/٤٤٨.

أو أكثر، وهذه رسالته التي أرسلها إلى صاحب الشرطة « أبي الوليد بن العثماني وهي رسالة نثرية خالصة من الشعر، يدعو بها صاحب الشرطة أبى التنزه في إحدى ضياعه قائلاً فيها بعد صدرها :

« قد عَلم سيدي أن بمرآه يكمل جَذلي، ويدنو أملي، وقد حللت محلاً عُنَّي الجو بتحسينه، وانفرد الربيع لتحصينه فكساه حللا من الأنوار بها ينجلي صدأ البصائر والأبصار، فمن مكموم يعبق مِسْكه، ولا يمنعه مَسْكه، ومن بادٍ يروق مجتلاه، ويفوق مجتباه، في مرآه وريَّاه فتفضل بالخفوف نحوي، وتعجيل اللحاق بي، لتجددّ للأنس مغاني قد درست ونفكُّ من السرور معاني قد أشكلت، وتشكر للربيع ما أرانا من البديع » (١).

كانت رسالة أبى الوليد بمثابة دعوة خاصة لصاحب الشرطة، يدعوه لمحفل زهر وروض في إحدى ضياعه التي يمتلكها وإذا كان أبو الوليد يتحدث عن رياض غيره ويتغنى في شعره ونثره، بجمالها وسحرها. فما الحال وهو يتحدث عن ضيعته..، لقد وصفها جنة في الأرض بما شملها الربيع من حسن وجمال عمّ وشمل كل شئ حتى الأنوار، والتي بها انجلى صدأ الأبصار ويصرح أبو الوليد في دعوته قائلاً :

وتفضل بالخفوف نحوى.....

وينهي رسالته بتوجيه الشكر لصانع الجمال ملك الفصول – الربيع – فله اليد الطولى في صنع ما كان من بديع.

ولم ينفرد الفصل الأول من الكتاب.. برسائل أبي الوليد فقط، فقد أورد عدة رسائل كلها تدور حول – وصف الربيع – وما يحدثه من جمال في الطبيعة.ومنها رسالة لذي الوزارتين القاضي – قال أبو الوليد عنها :

(١) البديع في وصف الربيع/٢٧.

«أنها نفثة سحر وقد جاوب بها أبا عمر بن أبي عامر، وقت كونه بإشبيلية وقد كتب إليه يسأله إباحة الخروج له إلى بعض ضياعه للتنزه في فصل الربيع. وهي :

«وقفت على كتابك – أكرم به – وفهمت ما تضمنه، وهي أوقات التنزه وأحيان التفرج، فقد أشرقت الأرض، وزهي الروض، وأقبل فصل الربيع بكل حسن بديع، وأفصحت الطير بعد عجمتها، وأبدت النواوير غرائب زهرتها، وكست الورق شجرها وغَطت الزروع مدرها، فلست ترى إلا خضرة تسطع، وثماراً تينع تجلو الصدى من الكبد الحري، وتريح الأسى عن النفوس المرضى – وقد قال عليه السلام – روحوا الأنفس فإنها تصدأ كما يصدأ الحديد» [1].

وصف أبو الوليد هذه الرسالة بأنها «نفثة سحر» وعلل ما وصفه ذاكرا ما نتج عن حلول فَصل الربيع وما فعلته يد الطبيعة من غرائب وعجائب في زهرها، وورق أشجارها، وزروعها، وثمارها... من جمال وفتنة تروح عن النفوس أساها وتشفي بهجتها مرضاها. وقد ورد في الرسالة حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه يصرح بالترويح عن النفوس، وإزاحة ما يعتريها من ضجر وملل وكآبة، وما ترويحها إلاّ بالنظر في الطبيعة الساحرة في رياضها وبساتينها وأزهارها وطيورها المغردة التي تغني شادية بجمال الطبيعة... وكل هذا الجمال الساحر الفتان لا يجتمع في فصل من فصول السنة، إلا في فصل الربيع.. فهو معرض جامع لشتى اللوحات الفنية الرائعة فيها الأضواء والألوان، وفيها الحركة والرائحة وفيها الحياة والكمال.

❁❁❁

(١) البديع في وصف الربيع /٨.

ثانياً : اختياراته في الفصل الثاني

خصص أبو الوليد الفصل الثاني من كتابه " **البديع في وصف الربيع** " للقطع الشعرية والرسائل النثرية التي لم تنفرد بصنف واحد من الأزهار أو النواوير حسب تعبيره، وقدَّم لكل نموذج منها، منوها بقائله ومناسبته ومنها: أبيات للحاجب أبى الحسن جعفر بن عثمان المصحفي [1] يقول فيها :

أنظر إلى الروض الأريض تخالُه	**كالوشى نُمِّق أحسن التنميق**
وكأنما السوسان[2] صبَّ مُدْنفٌ	**لعبت يداهُ بجيبه المشقوق**
يومَ الوداع ومُزقت أثوابه	**جَزَعاً عليهِ أيمَّا تُمزيقِ**
والنرجس الغض الذكيّ محاجِرٌ	**تعبت من التسهيد والتأريق**
يحكى لنا لون المحب بلونِه	**وإذا تنسم نكهة المعشوق**
وكأن دائرة الحديقة عندما	**جاد الغمام لها برشف الريقِ**
فلكٌ من الياقوت تسطع نوره	**فيه كواكب جوهر وعقيق**

ويعقب أبو الوليد على الأبيات شارحاً ومفسراً ومحللاً فيقول : الأبيات بارعة وفيها تشبيهات رائعة، حيث شبه أوراق السوسن في افتراقها بجيب مشقوق،

---

(١) هو : أبو الحسن جعفر بن عثمان بن نصر بن فوز بن عبد الله بن كسيله الحاجب المصحفي، من بربر بلنسية، أديب شاعر، عمل كاتباً زمن الناصر، وتولى الوزاره أيام الحكم، وتوفي سنة ٣٧٢ هـ.

(٢) السوسان : هو السوسن وهو نوع من الزهور المعروفة، وأجناسه كثيرة وأطيبه الأبيض ولا يعرف له نبت في بلاد العرب، كما أشار أبو حنيفة الدينوري في كتابه النبات صـ٥٤ تحقيق: محمد حميد الله. وكتاب : الزهور ونباتات الزينة/د : مصطفى بدر/٤٨٠/ط منشأة المعارف ١٩٩٦.

وهو معنى دقيق أنيق، وقد تداوله جماعة وأظنه من اختراعه، وتشبيهه الأخير في الحديقة من التشبيهات العقن على الحقيقة ".

وينقلنا أبو الوليد من إمتاع إلى إمتاع ومن باقة تخلب الألباب إلى أخرى أكثر روعة وحسنا فيورد أبياتاً للمتوكل بن أبي الحسين يصف فيها نواوير وهي :

في رياض بُسْطُها زَهْرٌ مُظْهِرٌ من أيكها قُبَبَا

نرجس[1] يرنو بلحْظته نَحْو وَرِدٍ طَالما انتقبا

فترى ذا سافرا خجِلاً وترى ذا عاشقا نصِبا

وترى الخيري[2] مكتتما مثل لِصٍّ كادَ أن يشيا

فإذا ما الليل ستَّره أظهر الفتكة واستلبا

وهي أشبه بلوحة فنية متحركة إذ كل يعرف دوره وينتظره ليقوم به، فالنرجس الخجل يقترب من الورد، والورد زهرة العشاق المعروفة المتبادلة بين المحبين، أما الخيري فإنه يتحرك ويرنو ببطء وصمت وتخفٍّ حتى لا يلفت الأنظار إليه، وإذا أقبل الليل أظهر جماله وفتنته وبدت حركته الطبيعية بين الأزهار.

ومن القطع البديعة التي أوردها الحميري في هذا الفصل قطعة لأبي بكر بن هذيل قال عنها إنها : رفيعة الصفات بديعة التشبيهات وهي قوله :

حديقة نَفْس تملأُ النفس بهجةً وتثني عيون الناظرين بها حَسْرى

(١) النرجس : نبات له ورق شبيه بورق الكرات إلا أنه أدق منه وأصغر بكثير، وله ساق جوفاء عليها زهر أبيض في وسطه شيء لونه أصفر، وهو طيب الرائحة.

(٢) الخيري : هو النبات المعروف بالمنثور، ونقل عن ابن البيطار في كتابه الجامع لمفردات الأدوية والأغذية. (٨٢/١) ما يفيد أن الخيري.. نبات له زهر مختلف بعضه أبيض وبعضه فرفيري وبعضه أصفر.

كـــأنَّ جَنِـــيَّ الجُلَّنـــار ووردهـــا عشـــيقان لمـــا اســـتجمعا أظهـــرا خفـــرا

كـــأنّ جـــنيّ سوســـانها في ســـنى الضـــحى كـــؤوس مـــن البلَّـــور قـــد حشـــيت تـــبرا

كـــأنَّ جـــنيّ الخـــيري في غـــبش الـــدجا نســـيم حبيـــب زارَ عاشـــقه ســـرا

كـــأنّ ينـــابيع الميـــاه مراجِـــلٌ تفـــور وقـــد أذكـــت لهـــن الحصـــى جمـــرا [1]

وفي هذه الأبيات جملة تشبيهات بديعة أولها تشبيه زهر الجلنار وهو(الرمان) وثمره في أول ظهوره بعشيقين لما اقتربا كست كلا منهما حمرة الخجل، وثانيه تشبيه زهر السوسن بكئوس من البلور امتلأت بالذهب، وثالثها تشبيه زهر الخيري في غبشة الليل بحبيب خجل يلحظ حبيبه سرا، وآخرها تشبيه ينابيع المياه الفوارة بقدر يغلي وكأن الحجارة الملونة في قاع تلك الينابيع وقد بدت من فرط صفاء الماء جمراً يضاعف من الغليان والفوران !!

❁❁❁

ومن القطع البديهية التي أثبتها أبو الوليد في هذا الفصل أبيات لأبي القاسم بن هانيء الأندلسي وهو يصف الورد والياسمين والنرجس بقوله :

وثلاثـــةٍ لم تجتمـــع في مجلـــس إلا لمثلـــك والأديـــبُ أريـــبُ

الـــورد في شَـــمَّامةٍ مـــن فضـــةٍ والیـــاسمين[2] وكـــلُّ ذاك عجيـــبُ

والنـــرجسُ الغـــضُ الـــذكي ولونُـــه لـــونُ المحِـــبّ إذا جفـــاه حبيـــبُ

فـــاحمرَّ ذا وابـــيضَّ ذا واصـــفرَّ ذا فبـــدت دلائـــلُ كلـــهنُّ غريـــبُ

فكـــأنّ هـــذا عاشـــق وكـــأنّ ذا ك معشـــوق وكـــأنّ ذاك رقيـــبُ

(١) البديع في وصف الربيع /٣١.

(٢) الياسمين : هو زهر أبيض ومنه أصفر وأزرق، والأبيض أطيب رائحة. (انظر :النبات لأبي حنيفة الدينوري/٣٤٦).

نلاحظ أن ابن هانئ اختار ثلاثة زهرات الورد والياسمين والنرجس وهي من أجمل النواوير في اللون والرائحة، والثلاثة اجتمعت في مجلس جعفر بن الأندلسية« وقيل في مجلس جعفر بن فلاح » (١).

ووصف الشاعر الورد بالحُمرة، والياسمين بالبياض، والنرجس بالصفرة وقام في البيت الأخير بتصنيفهم، فكان الورد الأحمر عاشقاً، إذ لونه يعلن عن العشق والهوى، والياسمين معشوق بلونه الأبيض الناصع، والنرجس رقيب بصفرته التي تعلن عن الإرهاق والسهر والتعب.

❁❁❁

ويسوق الحميري صاحب البديع في هذا الفصل نماذج كثيرة من شعر أبي عامر بن شهيد، منها هذا النموذج الذي قاله في جملة من النواوير وعدة من الأزاهير. موصولة بمدح ذي الوزارتين القاضي وهي :

وروضـــــــــةٍ مُشْـــــــــرِقةٍ بكــــــــــل نــــــــــوْرٍ مجتنــــــــــى
فيهـــــــا بهَـــــــارٌ(٢) بـــــــاهَرٌ ونــــــــرجس يشــــــكو الضـــــــنى
ويــــــــاسمين أرْضُــــــــه ونــــــــــوْره تلوَّنـــــــــا
كالليــــــل مخضـــــرا ولـــــــكنْ بـــــالنجوم زُيّنـــــا
فـــــــــاجتنى وردا وسوســـــــــنا ملسّـــــــــنا
وحولـــــــــه نيلـــــــوفر(٣) فتنــــــــــةٌ ران إنْ رنـــــــــا

(١) البديع في وصف الربيع/تحقيق : د. عبد الله عبد الرحيم عسيلان/٣٨.
(٢) البهار هو : الأقحوان الأصفر عند بعض الناس، وعامة الناس في الأندلس يسمونه بخبز الغراب وهو نبات له ساق رخصة وورق شبه ورق الرازيانج، وزهو أصفر أكبر من زهر البابونج شبيه بالعيون – انظر : الجامع لابن البيطار (١٢١/١).
(٣) النيلوفر : هو نبات ينبت في الآجام والمياه القائمة، ومنه ما يكون داخل الماء، وله ورق كثير مخرجه واحد وزهر أبيض شبيه بالسوسن وسطه زعفراني اللون.

تخالـــــــــه مضـــــــــاربا	مـــــــن المَهَـــــــا تروقنـــــــا
والآس(١) آس كاسمـــــــــــــه	بنـــــــوره قـــــــد حُســـــــنا
تنــــــــويره جـــــــــواهِرٌ	مـــــــن غـــــير بحـــــر تقتنـــــى
وحَبُّـــــــه مـــــــن سَـــــبَج	أو ســـــندس قـــــد لونـــــا
وقـــــد بـــــدا فيهـــــا البنفســـــ	ـــج النـــــدى الغـــــض الجنـــــى
وأرضُـــــــه مطـــــــارف	خُضـــــرٌ أتتنـــــا بـــــالمنى
طابـــــت بطيـــــبٍ ماجـــــدٍ	فَـــــاقَ ســـــناء وســـــنا
ذاك ابـــــن عبـــــاد عمـــــا	دي وسِـــــــراجي في الـــــــدُّنا
فهـــــو يـــــثيرُ الحـــــق والـــــ	عـــــدل ويحيـــــي السُّـــــنَنَا

وينقلنا أبو الوليد إلى دوحة أخرى وصف فيها أبو الحسن بن علي نواوير الربيع، ويمدح بها ذا الوزارتين القاضي ومنها :

كأنمـــــا الـــــروضُ لَمَّـــــا	وشـــــتْ يَـــــدَ المُـــــزنِ أرضـــــهْ
بكـــــل حمـــــراء صـــــرفٍ	وكـــــلّ بيضـــــاءَ بَضَّـــــهْ
كواكـــــب في سمـــــاءٍ	مـــــن الزبـــــر جـــــد محضـــــهْ
كـــــأن ظـــــل الأقـــــاحي	مـــــدامع مُـــــرْ فَضّـــــهْ
أو لؤلـــــؤ فـــــوق أرض	مـــــن المهـــــا مبيضـــــهْ
كأنمـــــا الـــــورد صَـــــدْرٌ	ألقـــــى بـــــه اللَّـــــثم عضَّـــــهْ
أو خـــــدٌّ أغيَـــــدَ قـــــد أخـــــ	ـــجلته حـــــال مُمِضَّـــــهْ
كأنمـــــا النهـــــرُ نصْـــــلٌ	جـــــلا الصـــــياقِلُ عُرْضَـــــهْ

(١) الآس : هو شجر طيب الرائحة، وخضرته دائمة وله زهرة بيضاء طيبة الرائحة وثمره سوداء. (انظر : كتاب النبات).

كأنمـــــا غُـــــدُرُ المـــــا ء في المـــــروج الفضـــــهْ
إذا الـــــتقين مـــــراءٍ أو أكـــــوْسٌ مـــــن فضـــــهْ

ويعقب أبو الوليد على هذه القطعة بقوله :"... فلما بلغني ذلك صنَعت على ذلك النحو قطعة تليق بهذا الباب وهي :-

انظـــر إلى النهـــر واعَجـــبْ لحســـن مـــرآه وأرضـــهْ
قـــد حـــلَّ بـــين ريـــاض مـــن النـــواوير غَضـــهْ
فيهـــا بَهـــار بَهـــيٌّ بَـــدَا فـــزين أرضـــهْ
كأنـــه جيـــدُ تـــبر يلـــوح في طـــوق فضـــه
ونـــرجس مثـــل لـــون الـــ ـــمهجور فـــارَق غمضـــهْ
وأقحـــوان [1] أنيـــق بُـــرودُه مبيضْـــه
قـــد طرَّزَتهـــا بتـــبر عـــينُ النـــدي المرفضْـــه
وبـــاقلاء[2] قـــد أبـــدى بَنْـــوره الحسْـــنَ مَحْضـــهْ
كأنمـــا هـــو خـــالٌ بخـــدّ بيضـــاء بَضْـــهْ
كأنمـــا النهـــر أفـــق السـ ـــماء عـــائقَ أرضـــهْ
كمـــا ابـــن عبـــاد النَّـــدْ ب قـــد كســـا الصـــون عرضـــهْ

ويقول أبو الوليد معقباً على هذه الأبيات والتي عارض فيها الفقيه أبا الحسن بن علي : « فلما أنشدته القاضي – أبقاه الله – سر سرور متشيع في

(١) الأقحوان : جاء في معجم الألفاظ الزراعية ١٥٩، أن الأقحوان جنس من زهر مشهور من الفصيلة المركبة يسمي زهر الغريب والكلمة العلمية معناها زهرة الذهب، ويقول ابن البيطار في كتابه الجامع لمفردات الأدوية (٤٨/١و ٤) عن ديقوريدوس ما يفيد أن الأقحوان ورقة شبيهة بورق الكزبرة وزهره أبيض والذي في أواسطه أصفر، له رائحة فيها ثقل، وطعم فيه مرارة.

(٢) الباقلاء : هو زهرة شبيهة بلون الورد الأحمر.

غَذِيّ إنعامه ورَبِيّ أيامه، وأمرنا باستحضار صاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية والأديبين أبي جعفر بن الأبار، وأبي بكر بن نصر، أمرهم عنه لازال ماضي الأمر بالعمل في ذلك المعنى على العروض والقافية، فلم أقدم شيئا على استحضارهم وإيراد ما أمرني به عليهم، فَصنعوا في ذلك ليلتهم أشعاراً رائعة السمات، فائقة الصفات »(١).

ومما أنشده أبو بكر بن القوطيةفي هذا السياق قوله:

بشاطئ الوادِ نهرٌ … كسا الدرانِكُ أرْضَهْ
خُضرا وصُقرا وحُمرا … وبعضها مبيضِهْ
نمارق وزرابٍ … من النواوير غضهْ
فالورد وجْنة خَوْدٍ … بيضاءَ غراءَ بضهْ
كما البنفسج خدٌّ … أبقى به الهشم عضهْ

ومن شعر أبي جعفر بن الأبار :

لا تَرُضَ للحظ غضَّهْ … والْمَحْ من النَّوْر غَضَّهْ
خدّ الربيع تبدَّى … فصل بلحظك عَضَّهْ
شقائق شقَّ قلْبي … رُوَاؤها واقتضَّهْ
كأنما الأرضُ منها … خريدةٌ مُفْتضَّهْ
ونرجس متغاضٍ … كأنما الحزنُ مَضَّه
وسوسن إن تَشِمْهُ … فكالوذائل بَضَّهْ

(١) البديع في وصف الربيع /٥١.

ومن شعر أبي بكر نصر :

أمـــا تـــرى الأرض خضـــرا ... ء بـــالأزاهر غَضَّـــهْ
كأنهـــا في مـــلاةٍ ... مـــن الزبرجـــد مَحْضَّـــهٍ
وفـــوق ذلـــك نـــورٌ ... يعـــانق الـــبعض بَعْضَـــهْ
مـــن نـــرجس ذي جفـــون ... دموعهـــا مرفضـــة
مصـــفر لـــونٍ كَصَـــبَّ ... بـــه غـــرامٌ أَمَضَّـــهْ
والسوســـن العَـــضُّ نَـــوْرٌ ... حمـــى عـــن الـــذم عرِضـــهْ
كأنـــه ضـــاحِكٌ عـــن ... عَـــوارض مبيضـــهْ (١)

وتوالت معارضات الشعراء بعد سماعهم هذه القطع الشعرية فكان لأبي الأصبغ قطعة شعرية على هيئتها في المعنى والغرض والوزن والقافية ومن أبيات أبي الأصبغ التي استوقفتني قوله في وصف الورد :

والـــورد مـــاءٌ ونـــارٌ ... سَـــالاَ علـــى وجـــه بَضَّـــهْ
ضِـــدان في صـــحن خـــدٍّ ... قـــدْ ألفـــا بَعْـــدَ بُغْضَـــهْ

ويقول أبو الوليد : هذا البيت غاية، وفي وصف الورد نهاية.

❁❁❁

وقال أبو الأصبغ عن الأقحوان والنرجس :-

فـــالأقحوان بيـــاضٌ ... كأنـــه سِـــمْطُ فِضَّـــهْ
والنـــرجس الغـــضّ تـــبر ... في صُـــفْرةٍ منـــه مَحْضَـــهْ

فقد شبه الشاعر الأقحوان في زهرته البيضاء بالفضة، والنرجس وزهرته الصفراء بالذهب.

---

(١) البديع في وصف الربيع /٤١.

وعند سماع القاضي هذه الأبيات من أبي الأصبغ تحرك في نفسه إحساس الشاعر المرهف واستجاشت شاعريته وتجلت بديهته الشعرية فأراد أن يحاكيها، فأمر اسماعيل بن محمد بن عامر والد أبى الوليد بأن يجلس بين يديه ويُمليها بدية عليه وهي :

أبلــــغ شــــقيقيَ عَــــنيِّ	مقالـــــــةً لتمضَّـــــهْ
بـــــأنَّ وصَـــــفْ الأقــــا	حـــى الـــذي وصـــفته لم أُرضـــهْ
هـــــلاَّ وصـــــفت الأقــــا	حـــى بـــأكؤس مـــن فضـــهْ
قيعانهــــــا ملبســــــاتٌ	صـــرف النضـــار ومحضـــهْ
أو لا فصـــــفر اليواقِيـــــ	ـــت في خـــوا تم فضـــهْ
أو النجـــــوم تساقطـــــ	ـــن في المهـــى المبيضـــهْ[1]

قال أبو الوليد : سمعت أبي وأبي الأصبغ يقولان والله ما أكمل إملاء الأبيات بتلك التشبيهات الرائقة، والصفات الرائعة إلا ونحن قد بهتنا من سرعة بديهته، وقدرة فكره على تهذيب قوافيها، وتذهيب معانيها في أسرع من لافي اللفظ، وأعجل من رجع اللحظ.

وقد لاحظنا أن القاضي قد رفض وصف أبو الأصبغ للأقاحي إذ وصفها بالبياض كالفضة، ويعارضه القاضي قائلاً:

هـــــلا وصـــــفت الأقــــاحي	بـــأكؤس مـــن فضـــة
قيعانهــــــا ملبســــــاتٌ	صـــرف النضـــار ومحضـــه
أو لا فصـــــفر اليواقِيـــــ	ت في خـــوا تم فضـــهْ

(١) البديع في وصف الربيع /٤٢.

جمع القاضي بين صفتيْ البياض والصفرة في الأقحوان، مما يدل على دقة الوصف وقوة التشبيه ويقول أبو الوليد : « جمعهما القاضي بتشبيهات كلها مستول على غاية الكمال، مستوف نهاية الجمال، ولو وقع تشبيه من تلك التشبيهات لموسوم بهذه الصناعة متخذ لها كالبضاعة، بعد إعمال فكره فيه، وإشغال ذهنه به لكان مستنداً مستغرباً، فكيف باجتماعها على حسنها وانطباعها له، بديهة مع كثرة اشتغاله بالفرائض عن هذه النوافل التي لا يتحلى بها، ولا يتجلب بجلبابها [١].

وقف أبو الوليد موقف الناقد المستحسن لأبيات القاضي المعجب بتشبيهاته وخاصة وقد قالها على البديهة.

ويظهر أن « مفهوم البديهة عند أبي الوليد يقترن بالارتجال وسرعة تدفق المعاني والقوافي وهو لا يفرق بين البديهة والارتجال[٢]» ونجده دائماً ما يقرنهما بالطبع، أو يصف كل شعر بديهي مرتجل وصل إليه عن طريق الإنشاد أو الإملاء بالطبع.

... في حين أن كثيرا من النقاد الأندلسيين يذهبون إلى التفرقة بينهما ومنهم ابن رشيق القيرواني فهو يرى :

« أن البديهة تحتاج إلى شيء من الفكر والتأمل السريع، في حين أن الارتجال تنثال معه المعاني والقوافي منهمرة متدفقة دون انقطاع.. إذ يقول :-

« البديهة عند كثير من الموسومين بعلم هذه الصناعة في بلدنا، أو من أهل عصرنا هي الارتجال، وليست به، لأن البديهة فيها الفكرة والتأمل والارتجال ما كان انهماراً وتدفقاً، لا يتوقف فيه قائله » [٣].

(١) البديع في وصف الربيع /٤٣.
(٢) البديع في وصف الربيع /تحقيق : عبد الله عبد الرحيم العسيلان/٥٦.
(٣) العمدة/(١٢٦/١) ط : بدر الغساني.

ويذهب ابن بسام في مفهومه للبديهة والارتجال مثلما ذهب ابن رشيق.

ونلحظ العديد من الشعراء الأندلسيين قالوا شعرهم على البديهة وهذا يرجع إلى قوة ملكتهم الشعرية وإبداعهم وتفوقهم في مجال الشعر، من مثل قول أبى بكر بن نصر إذ يقول على البديهة :

وقد راقني من يانع النَّوْر فاقع ... وقان وأحوى حالكُ اللون أسودْ
غلائلُ خيري واقباءُ سوسن ... وقمصان نسرين يروق توقدْ
وكم سبط للنور يسطع نورُهُ ... تمرُّ به ريحُ الصَّبا فتجعدُه
إذا الأقحوان الغَض أبدى تبسما ... تبدى من الورد النضير توردُهُ
ويزهى الشقيق العصفري بلونِهِ ... إذا فاقع الحَوذان جادَ تولدُهْ [1]

وللوزير أبي عامر قطعة بديهية قالها وبين يديه ثلاثة أنوار : خيري وبنفسج وبهار وأنشدها قائلاً :

وثلاثة لما اجتمعن بمجلسي ... أقررْن عين تنزُّهي وتأنُّسي
نمّام طيب في بهارٍ باهر ... وبنفسج أضحى حبيب الأنفسِ
فالسبق منها للبهَار لأنه ... يأتي ونور الروض لم يتحسسِ
ثم البنفسج فهو يتلوه لنا ... راقت ملاحته فأصبح مُؤنِسي
يحكي لنا المسك الفتيت بلوْنِهِ ... في أرض عَنْبرةٍ كلونِ السُّندسِ
والخير في الخيري إلا أَنهُ ... يُخفي النسيم نهاره بالمجلسِ [2]

❁❁❁

(١) البديع في وصف الربيع /٤٦.
(٢) البديع في وصف الربيع /٣٢.

ويطلعنا أبو الوليد على قصيدة جامعة لأكثر نواوير الربيع وهي من شعر أبي بكر بن نصر، وفيها تشبيهات كثيرة قدم لها الشاعر بمقدمة وصفية عن الأزاهير وصولاً إلى الغرض الأصلي للقصيدة وهو مدح إسماعيل بن عامر– والد أبى الوليد إذ يقول :

أسلالة من عامرِ سلني عن الـ ... أنْوارِ تحْصُلْ عِنّدك الأنْوار

لله نيسان ففيه تمَّ ما ... قَدْكانَ قبلْ بَدا به آذار

أما البقاع فإنها جادتْ لنا ... بشموس نور بينها أقمار

كالأقحوان بديهةً فاسْمَع له ... في الوصفِ ما فيه اللبيب يُحار

هو ضاحك الأسنان لما أن بكت ... عين السماء ودمعها مدرار

فتراهُ يبسم عن ثنايا فضة ... تبدو إليك لِثاتُهُنَّ نُضار

وشقائق النعمان قمْص أشْبِعتْ ... في حُمْرة قلها بذا إيثار

وكأنها وسط البقاع وقَدْ علتْ ... قُضْبانُ آس في ذُراها نارُ(١)

بدأ الشاعر قصيدته بلهجة خطابية إلى أبي عامر، ثم تدرج بحديثه إلى أنواع النواوير في فصل الربيع ووصف كل نوع وصفاً دقيقاً، فبدأ حديثه عن الأقحوان الذي يحار اللبيب في وصفه، فهو الضاحك عند بكاء السماء المتفتح المظهر لبياضه ثم يصف شقائق النعمان في حمرتها الظاهرة التي تختص به دون سواها.

وينتقل الشاعر في وصفه من زهرة إلى أخرى، فيصف البهار والنرجس والخيري والسوسن ويختم قصيدته بوصف الورد إذ يقول :

وإذا ذَكرت الوردَ فاعلم أنهُ ... للنَّوْر أجْمَع في الرياضِ مَنار

(١) نفس السابق /٤٥.

متـــــدثر بغلائـــــل حُمْـــــر العلـــــى تنجـــــــابُ دون جيوبـــــــه الأزرار

طيـــب لأنفـــاس النفـــوس ومنظـــر للعـــــين إلا أنـــــهُ غَـــــدّار

لم يقصر أبو الوليد مختاراته على القطع الشعرية التي تتناول وصفاً لنور أو نورين أو أكثر بل أثبت في الفصل الثاني من كتابه مجموعة متخيرة من الرسائل التي تدور حول فصل الربيع، وتصف نواويره، وتفضل بعضها على بعض. فجاءت بمثابة دعوات بين الأصدقاء من الشعراء للاحتفال بقدوم الربيع وما يحدثه في الطبيعة من جمال وسحر، كما ذكر بعض الرسائل التي تتضمن المفاضلة بين نور أو نورين أو أكثر، وقد أثرى أبو الوليد هذا الجزء من كتابه بالعديد من تلك الرسائل. وهذه رسالة بمثابة دعوة أرسلها عمر بن هشام بن قَلَبيل إلى صديق له يدعوه في زمن الربيع ويصف ما عنده من النواوير وهي :

« نحن – أكرمك الله – على بُسط الرياحين، ودرانكَ الورد والياسمين وَوَشْي رياض مونِقة حاكتها أيدي الربيع المغدِقة، تلاحظنا أعين النرجس والسوسان بأحلى محاجر وأجفان، وتبسم عن نوْر الأقحوان بمثل الدر والمرجان، فهي متضوعة عن لطائم المسك، متنفسة بأريج الورد جَذلة بهجة فائحة أرجة، فإن تقارَنَ حُسْنُها بحسن وجهك، فهي حالية مشرقة، وإن عطلت من صفاء غرتك فهي باكية مطرقة» (١).

والرسالة تدل على مقدار ما بلغه الأندلسيون من تأنق في تدبيج رسائلهم الإخوانية، وبخاصة ما يتصل منها بالعوة إلى التمتع بجمال الطبيعة، والمشاركة في مجاني البساتين الحافلة بألوان الأزاهير والنواوير في فصل الربيع، والتداعي للاستمتاع بها، واجتلاء محاسنها.

❁❁❁

(١) البديع في وصف الربيع /٢٨.

رسالة أبي حفص بن برد

ومن الرسائل المهمة التي أوردها أبو الوليد في هذا القسم من كتابه، رسالة لأبي حفص بن برد الكاتب، بعث بها إلى الوزير أبي الوليد بن جهور وصف فيها نواوير خمسة، وغرضه تفضيل الورد بينها وتقديمه عليها ويمكن تصنيف هذه الرسالة على أنها من المناظرات النثرية الخيالية، وقد وجد هذا الفن الأدبي لدى كتاب وشعراء الأندلس وتفننوا فيه وبخاصة في المناظرات الخيالية وهذا يرجع إلى الطبيعة الساحرة التي كانت تتمتع به بلادهم.

... وهذا الفن الأدبي ليس من مستحدثات الأندلسيين، لا فقد سبقهم إليه المشارقة[1] من أمثال الجاحظ وغيره، إلا أن غلبة المناظرات الخيالية كان في العصر الأندلسي، والرسالة التي بين أيدينا من هذا الصنف الخيالي.

وجاء في صدر الرسالة :

« أما بَعْد. سيدي ! ومن أفديه بنفسي فإنه ذكر بعض أهل الأدب المتقدمين فيه، وذوي الظرف المعتنين بُملح معانيه، أن صنوفاً من الرياحين وأجناساً من أنوار البساتين جمعها في بعض الأزمنة خاطر خطر بنفوسها، وهاجس هجس في ضمائرها لم يكن لها بُدٌّ من التفاوض فيه والتحاور والتحاكم من أجله، والتناصف، وأجمعت على أن ما ثبت في ذلك العهد ونفذ من الحلف ماض على من غاب شخصه، ولم يأت منها وقته. فتخيرت من البلاد أطيبها بقعة، وأخصبها نجعة، وأظلها شجرا، وأغضرها[2] زهرا، وأعطرها نفس ريح وأرقها دمع ندا... ثم أخذت مجالسها وانبرت على مراتبها فقام قائمها فقال :

---

(١) الأدب العربي في الأندلس /٤٧٠.

(٢) الغضارة : الطين اللازب الأخضر الحر، والغضراء : الأرض الطيبة الخضراء.

يـا معشـر الشـجر وعامـة الزهـر، إن اللطيـف الخبيـر الـذي خلـق المخلوقـات،وذرأ[1] البريـات، بَـايَنَ بَـيْن أشـكالها وأصـنافها، وباعـد بـين منحهـا وأعطياتهـا، فجعل عبداً وملكـاً، وخلـق قبيحـا وحسـنا، فضـل بعضـا علـى بعض حتى اعتدل بعدله الكل، واتسق على لطف قدرته الجميع ».

ثم ينتقل أبو حفص موضحاً مزية كل واحد حتى يصل إلى المفاضلة فيقول :

« لكل واحد منا جمال في صورته ورقة فى محاسنه، واعتدال في قده وعبق في نسيمه، ومائية في ديباجته، حتى عطفت علينا الأعين، وثنت إلينا الأنفس، وأصبتْ بنا الأكفّ، وأزهت بمحاضرنا المجالس حتى سفرنا بين الأحبة ووصلنا أسباب القلوب، وتحملنا لطائف الرسائل، وحببنا اللهو، واحتضنا السرور وأخذنا جعالة البُشرى وأكرمنا بنُزل الرفادة وأسنيت لنا صلة الزيادة، وصيغ فينا القريض، وركبت على محاسننا الأعاريض. فطمح بنا العجب وازدهانا الكبر، وحملنا تفضيل من فضلنا، وإيثار من آثرنا ».

وينقلنا الكاتب إلى التصريح بأفضلية الورد على صنوف النواوير وذكر فكرة المبايعة له إذ يقول :

« ادعينا الفضل بأسره، والكمال بأجمعه، ولم نعلم أن فينا من له المزية علينا ومن هو أولى بالرياسة منا، ومن يجب له علينا التحرج ومدُّ اليد بالمبايعة، وإعطاء مجهود المحبة وبذل ذات النفس وهو الورد، الذي إن بذلنا الإنصاف من أنفسنا ولم نرتكض في بحر عمانا، ولم نمل مع نزع هوانا دِنَّا له ودعونا له واعترفنا بفضله، وقلنا برياسته، واعتقدنا إمرته وأصفينا محبته، فمن لقيه منا حياه بالملك ووفاه حق الإمامة ».

ويستطرد الكاتب في الانتصار للورد وتفضيله على بقية النواوير فيخلع عليه صفات كثيرة إذ يقول :

---

(١) ذرأ : بمعنى خلق ومنه الذرية لنسل الثقلين.

« هو الأكرم حسباً، والأشرف زمناً والأتم خصالاً، والذي إن فقدت عينه لم يفقد أثره أو غاب شخصُه لم يغب عَرفُه، والطيب إليه كله محتاج وهو عن جميعه مستغن وهو أحمر والحمرة لون الدم، والدم صديق الروح وصبغة الحياة، وهو كالياقوت المنَضَد في أطباق الزبرجد عليها فرائد العسجد ».

وعلى هذا النحو يمضي كاتب الرسالة في وصف الورد حتى يذكر صنوف النواوير الحاضرة في المجلس وهم النرجس الأصفر، والبنفسج والبهار والخيري النمام.

وينقل الحوار الدائر بينهم في أمر اختيارهم للورد ملكا عليهم والمبايعة له. إذ يقول :

النرجس الأصفر :

« والذي مهد لي حجر الثرى، وأرضعني ثدي الحيا لقد جئت بها أوضح من لَبَّة الصَّباح، وأسطع من لسان المصباح ولقد كنت أُسِرُّ من التعبد له، والشغف به، والأسف على تعاقب الموت والرجعة دون لقائه، ما انحل جسمي ومكن سُقْمي، وإذ قد أمكن البوحُ بالشكوى فقد حق ثقل البلوى ».

ثم ينتقل بنا إلى موقف البنفسج الذي يصرح بموقفه قائلا :

"على الخبير سقطت أنا والله المتعبد له الداعي إليه المشغوف به كَلَفا، المغضوض بيد النأى عنه أسفا، وكفى ما بوجهي من ندب، وبجسمي من عدم نهوض ولكن في التأسي بك أنس، وفي الاستواء معك وجدان سلوٌ.

ويصرح ابن برد بشهادة البهار والتي وجدناها تتضمن بعض الأبيات الشعرية وكأنها برهان يؤكد به شهادته يقول :

ثـــم قـــالوا تحبُّهـــا قلـــت بهْـــراً عـــدد الـــنَّجْم والحَصَـــى والتُّـــرابِ

لا تنظرن إلى غضارة منبتي، ونضارة ورقي، وانظر إليَّ وقَدْ صرتُ حدقَةً باهتة تشير إليه وعينا شاخصة تندي بكاءً عليه.

ولـــــولا كثـــــرة البـــــاكين حـــــولي علـــى إخـــوانهم لقتلـــت نفســـي(١)

فهذه شهادة البهار على نفسه، وقد أقرّ فيها أن نضارته مؤقتة وغضارته زائلة، فسرعان ما يحدث له الذبول، فيصير كحدقة العين المرهقة فيها عيون تائهة شاخصة أرهقها وأتعبها البكاء، ثم يضمن في اعترافه وشهادته بيتا مشهورا للخنساء من رثائياتها في أخيها صخر، أبرزت في ذلك البيت معنى عجيبا، وهو أنها لولا ما يعاينه من بكاء الثكلى على أحبتهم الراحلين لقتلت نفسها كمدا وحزنا !! ولكن تساوَى حالها بحالهم، وحزنها بحزنهم وهذا ما جعلها تعدل عن قتل نفسها.

وحال البهار لا يقل عن حالها، فلولا ما يجده حوله من صنوف متعددة ومتنوعة من النواوير، ذابلة بعد نضارة، آفلة بعد إشراقة، مفتقدة لعنصر الحياة لقتل نفسه حزنا على ما صار إليه من حال.

ثم تأتي شهادة الخيري الذي ينبري فيقول :

« والذي أعطاه الفضل دوني، ومدّ له بالبيعة يميني ما اجترأت قط إجلالاً له واستحياء منه، على أن أتنفس نهاراً أو أساعد في لذة صديقاً أو جاراً، فلذلك جعلت الليل سترا، واتخذت جوانبه كِنًّا ».

ويختتم ابن برد رسالته بإجماع آراء من حضر المجلس بتفضيل الورد ومبايعته، بيد أنهم تداركوا أن موافقتهم على المبايعة غير كافية، وعليهم أن يستعينوا بآراء بقية النواوير والتي لا يجمعها بهم مجلس إلا نادراً أو قليلاً، فاتفقوا فيما بينهم أن يكاتبوهم ويرسلوا إليهم رسالة يثبتوا فيها مبايعتهم لمليكهم وهو الورد، ويعللوا سبب اختيارهم له دون سواه.

ويذكر ابن برد شهادتهم نظماً إذ يقول على لسان البنفسج :

---

(١) البيت للخنساء في ديوانها /٨٤.

شهد البنفسج أَنَّهُ للورد عَبْدُ تَملُّكِ
يسعى بقلب ناصح في حبُه مستهلك

ويقول الخيريّ النمام :

شهد الخيري براً صادقاً قَوْلَةَ أبعد عنها الدركُ
أن أزهار الثرى أجمعها أعبُدٌ والوردُ فيها مَلِكُ (١)

ويختتم ابن برد رسالته إلى أبي الوليد متمنياً أن تكون رسالته خالية من الزلل راجياً أن تقع في نفسه موقعاً حسناً، ويجد فيها ما يبهجه من مُلح وما يدخل على نفسه السرور.

ورسالة أبي حفص بن برد هذه من عيون النثر الأندلسي وقد نالت شهرة واسعة وتبارى الكتاب والبلغاء في محاكاتها والاقتباس منها والنسج على منوالها . ومنهم أبو الوليد الحميري نفسه . لما فيها من خيال محلق، وتأنق مبتكر، إذ تمثل الترف الفني الذي بلغه الأدب الأندلسي، حتى صار الأدباء يتفننون في هذه الأوان البديعية الدقيقة، ويقيمون بينها المناظرات، ويصوغون على ألسنتها الأقوال والاحتجاجات !!.

۞۞۞

(١) البديع في وصف البديع /٥١.

رسالة أبي الوليد التي يعارض بها رسالة ابن برد :

لقد وجد أبو الوليد الحميري بعد أن عرض رسالة ابن برد أن السياق يقتضي أن يثبت رسالته التي يعارض بها رسالة ابن برد، والتي نسجها على منوالها، وصرح في بدايتها أنه سطرها بعد اطلاعه على رسالة ابن برد يقول :

" ولي رسالة أردفتها على هذه (يقصد رسالة أبي حفص بن برد) مشتملة على وصف سبعة أنوار على مانتهت إليه غاية اختياري وغرضي في الرد بتفضيل البهار على الورد، خاطبت بها ذا الوزارتين... وهي : يا مولاي الذي رقه لي شرف، وجوده عليَّ سرف، ومنأبقاه الله لرفع شأن ودود، ووضع شأن حسود . كان اجتماع بعض النواوير واتفاق طائفة من الأزاهير على تقديم الورد عليها، وتفضيله بينها، وتخيره للخلافة منها ما قد وقفت عليه، ونظرت إليه مما عنى بجمعه وانفرد لذكره أبو حفص بن برد الوزير الكاتب، وسراج الأدب الثاقب، وكانت النواوير المتفقة عليه، والداعية حينئذٍ إليه: البنفسج والخيري النمام والبهار، وكتبت كتاباً إلى صنوف الأنوار، وضروب الأزهار تأمرها بالوقوف عندما وقفت والاتفاق على ما اتفقت. »[1]

غير أن هذا الكتاب لم يلق القبول لدى جميع الأزهار، فأول من اعترضت عليه، وانبرت لما جاء فيه نواوير الربيع :

«... فلما قرأته أكبرت ما فيه، وبنت على هدم مبانيه، وبعض معانيه، وعرفت الورد بما عليه فيما نُسب إليه من استحقاقه ما لا يستحقه، واسْتئهاله ما لا يستأهله ».

.. وقد أفصحت عن ذلك بالكتابة إلى الأقحوان والخيري الأصفر بحكم الجوار في الوطن والاتفاق في الزمن، فقالت لهما :

---

(١) البديع /٥٢.

« من نواوير فصل الربيع الأزهر إلى الأقحوان والخيري الأصفر. بسم الله الرحمن الرحيم. وصلت إلينا بيعة اشترى بها من سعى فيها، وفغرعن فيها خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين، ولو استحق الورد إمامة، أو استوجب خلافة لبادر بها آباؤنا، ولعقدها أوائلنا التي لم تزل تجاوره في مكانه، وتجيء معه في أوانِه. » (١)

وفي ثنايا الرسالة نلمح الدهشة والحيرة على ألسنة بقية النواوير الذين أعرضت عن البيعة للورد بالملك أو بالإمامة على بقية النواوير، وخاصة أن من بين النواوير من هو أحق منه بذلك، وهو « البهار » الذي تغنى به الشعراء، وشبهوا العيون به وهي أشرف الحواس...

« هو البادي فضله بُدُوَّ النهار، والذي عند علماء الشعراء، وحكماء البلغاء مشبهاً بالعيون التي لا يحول نظرها، ولا يحور حَوْرها، وأفضل تشبيه للورد الخد عند من تشبع فيه، وعُنى به، وأشرف الحواس العين، إذ هي على كل مُنَوِّل عونٌ وليس الخد حاسة فكيف تبلغه رياسة ».

ويستند أبو الوليد في رسالته على أفضلية البهار على الورد بقول ابن الرومي :

أين الخدود من العيون رياسة ونفاسة لولا القياس الفاسدُ(٢)

ويعقب على رسالته بعد هذا البيت قائلاً : وأصح تشبيه للورد وأقربه من الحق، قول الحكيم ابن الرومي في شعره الطائي، لقد وافق ووفق وشبه وحقق إذ يقول :

---

(١) نفس السابق /٥٣.

(٢) ديوان ابن الرومي/جـ٢/٦٤٤.

وقائـــل لم هجـــوت الـــورد معتمـــداً فقلـت مـن بغضـه عنـدي ومـن سـخطه

يـــا مـــادح الـــورد لا ينفـــك عـــن غلطـــه ألســـت تبصـــره في كـــف ملتقطـــه

كأنـــه ســـرم بغـــل حـــين يخرجـــه عنـد الريـاث وبـاقي الـروث في وسـطه(١)

.. تجلت براعة أبى الوليد في عرضه لرسالته وتفضيله البهار على الورد، وقال معللاً عن هذه الأفضلية أن العين من الحواس الهامة وأن البهار يشبه العين، أما الخد فهو يشبه الورد وهو ليس بحاسة.

.. ويصور لنا أبو الوليد حدة الأنوار الربيعية على البهار والتي أخذت في تأنيبه على تخاذله أمام الأزهار التي فضلت عليه الورد، حيث شاركهم فيما ذهبوا إليه، ونسى حق نفسه في الفضل والتقديم.

إذ يقول :

« وأنبأ البهار مفردا تأنيباً يقيمه ويقعده ويقصده فيُقْصده على مشاركته على نفسه، وسعايته في إبطال حقه، فلولا استجابته لها، وكونه معها ما تحصن لتلك مراد، ولا تحسّن لها مَراد وحيَّاه عنَّا بالسلام الأثير بعد الملام الكثير ».

.. وبعد هذا التأنيب أخذت نواوير الربيع في التلطف مع البهار فأقسمت قائلة:

« و والله العظيم حقه الواسع رزقهُ لو جاورناه في الوطن، أو صاحبناه في زمن لبايعناه منذ مدة مبايعة العبيد ونفديه لفضله علينا بالطريف والتليد»[٢].

وفي ثنايا الرسالة نلمح الحوار الشيق عندما وصل كتاب نواوير الربيع الذي بعثت به إلى الخيري الأصفر والأقحوان وكان عندهما كل من البنفسج

(١) نفس الديوان.

(٢) البديع في وصف البديع /٥٤.

والخيري النمام والنرجس، فأخذا في تأنيب هذه النواوير، وتسفيه آرائها في تقديم الورد، وألحا عليها في ذلك مما جعلها تتراجع عن موقفها، وأعلنت ذلك بقولها :

« لا تكثرا لومنا ولا تطيلا تأنيبنا، فلو لم تكن لنا سقطة، ولا نسبت إلينا غلطة، لخرجنا عن الأمر المعلوم والحد المعروف، فلابد لكل من تدبير دبريّ، ورأيٍ غير مرضي، وقد قيل اللبيب من عُدت سقطاته والأديب من حُصِّلَت هفواته ».

وينقلنا أبو الوليد من شعور إلى شعور آخر، إذ يصور لنا تأنيب الخيريّ والأقحوان لأنفسهما وأنهما يستحقان هذا التأنيب إذ يقول :

« و الله إنَّنا لأحقاءُ بالتأنيب أحرياء بالتثريب، إذ عجلنا عظيمة لم ننعم النظر فيها وأنقذنا كبيرة، لم نُعان عويص معانيها، وقديماً حُمد التأني، وذمت العجلة ومن أمثالهم : رُبَّ عجلة تبعث ريثا، ورحم الله القائل : وقد يكون مع المستعجل الزلل، لكننا فصفح قفا الحوبة بيد التوبة، ونجلو دجى الاقتراب بصبح الاعتراف ».

وينقل لنا أبو الوليد في رسالته فرحة الأقحوان والخيري الأصفر بتراجعهما و انضمامهما إلى بقية النواوير الأخرى، واعتذارهما إلى البهار وطلب العفو منه إذ يقول :-

" خرجت بأسرها إلى البهار معتذرة إليه، متنصلة مما جنته عليه، وسألته العفو عن ذنوبها والإمساك عن تأنيبها، والطاعة لها بالتقدم عليها، والتملك لجميعها، فأجابها إلى رغبتها وأطلبها في طلبتها وأنشدها قول ابن المعتز :

" ديـــة الـــذنب عنـــدنا الاعتـــذار "

وما أبدعه من رد على الأقحوان والخيري، فهو رد يفصح عن التسامح والعفو والصفح، وأن اعتذارهما قد محا عنده كل ما قدماه من ذنوب وأخطاء.

.. ثم دبج الأقحوان والخيري رسالة إلى أنوار الربيع، يفصحان فيها عن موقفهما المؤيد في فضل البهار وهي :

« وصل إلينا كتابكم، وورد علينا خطابكم تبينون فيه ضعف مَيْز مقدمي الورد، ومبايعته، وسوء رأي موليه ومؤملية تلك قصة غابت عنا، وبعدت بفضل الله منا وقد ظهر ضعفها إلى من تولى ».

.. و يعانى أبو الوليد من الصراع الدائر بين النواوير، ويجعلنا نعيش معه وكأننا نحاول التهدئة بين النواوير، محاولين إرضاء بعضها وإزالة جو التشاحن بينها واتفاقها على قرار واحد، وهذا ما وصلوا إليه في نهاية الأمر، إذ اتفقت نواوير الربيع على مبايعتها للبهار وتقديمه على الورد لما يتمتع به من مزايا وصفات تجعله منفرداً متميزاً :

« وصدر الاتفاق عن كبرائكم وعنَّا، فهي النعمة التي بها تنتظم أمورنا، ويُراعى أميرنا، وقد بايعنا البهار الباهر، جماله الظاهر كماله على ما رضيتم به ورغبتم فيه، وقد وضعنا شهادتنا على صدق من نياتنا ».

.. ولا يكتفي أبو الوليد بهذا الإقرار الجماعي بل يذكر لنا شهادة كل نور من النواوير وهي تقرُّ بالمبايعة.. وكأنها تتويج للبهار.

ومن الشهادات الشاهدة على هذا التتويج، البنفسج والنرجس، والخيري والأقحوان والخيريّ الأصفر.

إذ يقول البنفسج : « والله ما أضعف أملي، وضاعف عللي، وأوهن سُوقي مني، وقللني في كل سوق إلا الدخول في تلك الوحول والبعد عن الخلق الكريم، والصراط المستقيم في تأخير هذا الملك العظيم، الذي بتقديمه الآن أرجو أن دائي قد لان ».

والنظم له :

أما البنفسج فهو يشهد أنه متذمم مما جنى متنصل

متبرئ من بيعة الورد التي لم يبر منها داؤه المتأصل
متبين فضل البهار وعالمٌ أن البهار هو المليك الأفضل

ويقول النرجس :–

« تباً لتلك الفعلة الذميمة، والقضية الذميمة، التي جلبتني جلباب السقم، وسربلتني سربال الهَرَم، ولولا بداري إلى نسخها وتحيُلي في فسخها لذهب نفسي الأرجُ الذي به أبتهج ».

والنظم هو :–

أشهد النرجس إشهاد محق أن بدر الورد في الملك مُحِقْ
ورأى أن البهار المجتلى في سماء الحسنِ بالمُلك أحقْ
فمتى كُذب قول أبدا قيل في قولته هذِي صدقْ (١)

ويعرض أبو الوليد بقية أقوال النواوير وشهادتها في البهار وفي أحقيته بالملك وتقديمه على الورد، وتراجعها عما ذهبت إليه من آراء خاطئة ونلمح الصنعة الأدبية البارزة في رسالة أبي الوليد، فلم يكتف بأقوال النواوير نثراً وإنما ساقها أيضاً نظماً وهذا يدل على براعته ومهارته كاتباً وشاعراً.

❁❁❁

ويعرض أبو الوليد في هذا الفصل العديد من الرسائل الإخوانية، والأدبية التي يصف فيها أصحابها صنوف النواوير ويفاضلون بينها، فيقدمون ويؤخرون ويمدحون ويقدحون.

ونجد أبا الوليد يصرح بمنهجه قائلاً : « ومما يصلح أن يكون في هذا الباب ما في النواوير من تفضيل وتغليب أو جرى بينها من تفاضل وتفاخر»(٢).

(١) البديع في وصف البديع /٥٨.
(٢) البديع في وصف البديع /٥٨.

• وقد غلب على منهج أبى الوليد في هذا الفصل « ذكر الموازنات الشعرية وهذه موازنة رائعة بين ابن الرومي وأبي عثمان الجياني فابن الرومي يفضل النرجس على الورد على عكس الجياني.

إذ يقول ابن الرومي :

شتَّانَ بيْنَ اثنين هذا مُوعِدٌ بتسلُّبِ الدُّنيا وهذا واعِدُ (١).

ويرد عليه الجياني قائلاً :

ولن يكون الفَضْل في حكم العُلا مَوْعُودُ عَنْهُ أَوْ النَديمُ الوَاعِدْ

ويعقب أبو الوليد قائلاً: إن رَّد الجياني على ابن الرومي مقنع لأن الموعود به أجل من النذير الواعد عنه.

وقول الجياني :

يفني خيارُ الخَلق في الدنيا وما شيءُ سوى إبليس فيها خالدْ

وهذا البيت رد فيه على ابن الرومي القائل :

وإذا احتفظت به فأَمتعُ صاحب بحياته لو أنَّ حياً خالدً

وقول الجياني :-

وجعلت للأسماء حظاً زائداً مّهلاً فما هذا سبيل قاصد

..رد فيه على ابن الرومي القائل :

أطلب بعيشك في الملاح سميهُ أبداً فإنكَ لا مَحَّالة واجدُ (٢)

ويعقب أبو الوليد قائلاً :

(١) ديوان ابن الرومي (٦٤٣/٢) وديوان المعاني/أبو هلال العسكري (٣٧٢/٢/١).
(٢) نفس الديوان/٦٤٤.

جعل من محاسنه التسمي به عندهم، فنرجس في أسمائهم كثير، وذلك لا حجة له ولا عليه.

ويقول الجياني :

لـــو أن فعـــلاً للكواكـــب في الثـــرى رَبّـــى الريـــاضَ كمـــا يُرَبّـــى الوالِـــدَ

رد فيه على قول ابن الرومي :-

هَـــذي النجـــومُ هـــي الـــتي رَبتهُمـــا بِحَيـــا الســـحاب كمـــا يُربّـــى الوالِـــدُ

فـــانظر إلى الأخـــوين مـــن أدناهمـــا شِـــبْهاً بوالِـــدِهِ فَـــذَاك الماجِـــدُ. (١)

تجلى أبو الوليد في استعراضه لهذه المعارضة التي جعلتنا نشاهدها وكأننا نشاهد قضية ماثلة أمامنا، كلٌ يعرض رأيه، ويستند إلى حجته وبرهانه، ونحن نتحرك في إطار حركة المد والجزر بين هذا وذاك.

ولم يكتف أبو الوليد بنقله للمعارضة بل كان يُعقب على ما يراه يتطلب التعقيب والتعليق، وهذا ما يدل على كياسة الكاتب الحاذق، العارف الماهر المبدع في صناعته.

- ويستعرض أبو الوليد في هذا الفصل معارضات كثيرة كلها حول النواوير الربيعية التي أولع بها الأندلسيون، وهذا ما جلبته عليهم طبيعة بلادهم الساحرة الزاهرة الناضرة مما يوجب الاحتفاء بها.

والحديث عن الأزاهير وأنواعها وصنوفها والمفاضلة بينها، حديث شجي تسعد به النفس وتهنأ به الروح، وتجعل الشعراء يتغنون بجمالها وسحرها ويهيمون بمحاسنها ومباهجها.

ذكر أبو الوليد معارضات بديعية بين الشعراء وبين ابن الرومي في المفاضلة بين الورد والنرجس، وفي كل معارضة شعرية تتم بين شاعر أندلسي

(١) ديوان ابن الرومي/(٦/٦٤٤).

وبين ابن الرومي نلحظ إصرار ابن الرومي على تقديم « النرجس » على بقية النواوير الأخرى من مثل قوله :

أيـــن العيـــون مـــن الخـــدود نفاســـة ورياســـة لـــولا القيـــاس الفاســـد

وقوله :

وقائـــل لم هجـــوت الـــورد معتمـــداً فقلـت مـن قبحـه عنـدي ومـن سـخطه

كأنـــه ســـرم بغـــل حـــين يخرجـــه عنـد الـبرازوبـاقي الـروث في وسـطه (١)

فيرد عليه الأندلسي:-

لعائـب الـورد قـل مـا أنـت مـن نَمطـه قـد قلـت هجـراً فتـب في القـول مـن غلطـه

الـــورد خَـــدٌّ جبيـــبٍ حـــين تلثَّمـــهُ فيغتـــدي أثـــر الأســـنان في وســـطه

❁❁❁

وذكر أبو الوليد بيتين لابن المعتز يعارض فيهما ابن الرومي وهما :

يـــا هـــاجي الـــورد مـــا حَيِيـــت مـــن رجـــل غلطـت والمـرء قـد يـؤتى علـى غلطـه

هـــل تنبـــت الأرض شـــيئاً مـــن أزاهرهـــا إذا تجلـــت يحـــاكي الـــورد في نمطـــه

❁❁❁

ومن بديعيات أبي الوليد ما ذكره عن أبي جعفر بن الأبار في سرده لقطعة شعرية حسنة يقر فيها البهار بأفضلية الورد وفضله على النواوير، وقد وصلها بمدح ذي الوزارتين القاضي سيف الحق الماضي وهي :

طلـــــع النـــــرجس في أكفانـــــهِ قـــائلاً للـــوردِ قـــد برحـــت بـــي

لم تـــزل تُـــورِثُ جســـمي سَـــقْماً مُبْكيـــاً عَـــيْني بـــدمع الحَبيـــبِ

كيـــف خلطـــت وغلبـــت علـــي ســـيد الأنـــواريـــا للعَجَـــبِ

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسي /٧٨.

إنما اسمي تحت شكواي فلا تُوقعوني تحت ريب الريبِ

أنا لولا طمعي أن نلتقي ما أقلتني حيناً قضبي (١)

فضله فضل ابن عباد أبي الـ قاسم القاضي قريع العرب

ملك لو لم يمجد بالثنا قال للعالم حسبي حسبي(٢)

أجاد الشاعر في تجسيد الحوار الشعري بين النرجس والورد، وكأننا أمام شخصين أحدهما يرى الأفضلية للثاني عليه، و يعترف ويقر بهذا دون تحرج أو حياء أو خجل وكأنه يعرف مقدار نفسه، ومقدار من يخاطبه، وكأن النرجس يعرف أنه مهما بلغ من أهمية فإنه لا يصل إلى قامة الورد. وهذا ما وضحه في البيت الثالث وهو يعلن عن تعجبه من المخالطة والمغالطة التي جعلته يغلب على الورد وهذه المعارضة لا يَدَ له فيها، فهو يعلن عن شكواه ممن وضعوه قريناً ونداً للورد ثم يحسن الشاعر التخلص من هذه المقدمة الوصفية إلى الغرض الأصلي للقصيدة وهو مديحه لابن عباد.

- استطاع أبو الوليد أن يحدد معالم ظاهرة وبارزة في منهجه بحيث تصبح علامات واضحة في كتابه، لها دلالتها وأصولها، وهذا ما وضحه سابقا في المفاضلة بين البهار والورد. ومفاضلات ابن الرومي وأبي بكر بن القوطية وغيرهما.

وينقلنا أبو الوليد من إمتاع إلى إمتاع، ومن جمال إلى جمال وخاصة ونحن نتجول بين الرياض والبساتين، تصحبنا سفينة مزينة معطرة بأريج النواوير. لنتوقف عند البنفسج وليس أي بنفسج إنما هو بنفسج العامرية إذ يصرح

(١) القضيب : الغصن والجمع قضب.

(٢) البديع في وصف البديع /٦٨.

بأفضليته، وتقدمه على الورد والبهار في رسالة أرسلها الوزير الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري إلى المنصور بن أبي عامر وهي بعد صدرها :

« إني أتشبه بأحسن ما زين الله به الإنسان، وهو الحيوان الناطق من أدوات خلقه، وأنفس ما رُكب فيه من مواد حياته، مع أني أعطر منهما عطراً وأحمد خُبرا، وأكرم إمتاعا شاهدا وغائبا ويانعا وذابلا وكلاهما لا يُمتِعك إلا ريث ما يبدو للعيون، ويسلم من الذبول، ثم تستكره الأنوف شمه، وتستدفع الأكف ضمه، فأين هذه الحال من الاستمتاع بي رطبا وادخاري في خزائن الملوك جافا، وتفضيلي على ألسنة الحكماء، وتصريفي في منافع الأعضاء ».

ويزيد أبو مروان بن عبد الملك من عضده بالبنفسج فيقول مختتماً رسالته :

« وقد أودعت – أيد الله المنصور – قوافي الشعر من وصف مشابهي ما أودعاه من وصف مشابههما، وحضرت بنفسي لئلا أغيب من حضرتهما، فقديماً فضلوا الحاضر وإن كان مفضولا ولهذا قالوا « إن الطعام ما حضر لوقته» و « أشعر الناس من أنت في شعره – ولمولايّ أيده الله – أن يعدل في اختياره الصحيح، ويفضل بحكمه العدل إن شاء الله ».

.. ونتبين من هذه الرسالة، رغبة البنفسج في ركب سباق المفاضلة بين الأزهار. (١)

وخاصة أن ذكره على ألسنة الشعراء قليل إذا قسناه بالبهار أو الورد، وقد شعر بهذا التوحد، فأراد الانضمام في السباق كي يحظى بالأفضلية وهذا ما بينه في قوله موضحاً صفاته : « فأين هذه الحال من الاستمتاع بي رطبا، وادخاري في خزائن الملوك جافاً، وتفضيلي على ألسنة الحكماء..... الخ ».

❁❁❁

(١) البديع في وصف البديع /٧٠ والرسالة في نفح الطيب/جـ١/٥٣٢.

وينقلنا أبو الوليد من مفاضلة إلى مفاضلة أخرى، إذ يقول في مفاضلة لأبي عامر بن مسلمة يفاضل فيها البهار على النرجس « أنها قطعة بديعة مطبوعة.. وهي :

ونرجس هَبَّ يرنو ... بمقلةٍ ليس تطرف
مثل النجوم تساقطن ... في رداءٍ مُفوَّفِ (١)
يحكي البهارَ ولكن ... بهرُنا منه أصلف (٢)
له فضيلة سبق ... لِغْيرِه ليس تعرف
فعُج عليه فَدتك الـ ... نفوس واشرب لتظرف

وبحدد أبو الوليد في نهاية الفصل الثاني من كتابه بعض القطع الشعرية التي قيلت في مفاضلة الخيري الأصفر ومنها قطعة بديهية لصاحب الشرطة أبي بكر بن القوطية وهي :

وأصفر نرجسيّ اللَّون نمام ... مبرأ من صنوف النقص والذَّام
زَها اعتلاءً على النمام يجمعه ... به اسمه فِعل ذي لبٍّ وإلهام
فقال لي الفضل إني في النهار وفي ... ليلي أنِمٌّ وفي صبحي وإظلامي
وأنت يا مُدَّعي اسمي طول يومك لا ... تُدنى اطراحاً إلى خيشوم شمام
وإن لونك من لون النّحاس ولوْ ... ني في ملاحته ضرب من السامي

أبدع الشاعر في وصف الخيري الأصفر فكان وصفه له بالكمال المبرأ من النقص وهذا الكمال جعله يعيش في خيلاء وزهو على النواوير الأخرى،

(١) المفوف : الرداء المفوف الرقيق، أو الذي فيه خطوط بيض.
(٢) الأصلف والصافاء : ما صلب من الأرض، والصلف التمدح بما ليس عندك والادعاء فوق ذلك تكبراً.

وخاصة من يقرب إليه مثل الخيري النمام، الذي وصفه بالنقص والذم، وكأنه منفصل عنه وعن فصيلته، حتى عاب لونه وشبهه باللون النحاسي، على حين زهى بلونه النرجسي.

وعندما كثر الكلام في تفضيل الخيري الأصفر على النمام، نهض أبو الوليد نهضة الشاعر الثائر المدافع عن النواوير كلها، والتي لا يرضى فيها أن يذم واحد منهم أو يُعاب بنقض أو زلل.

إذ يقول معارضا لمن بخس النمام أكثر حقه، ولم يرع حسن خَلقِه وخُلقِه :

يـــا مـــن يـــذُمّ خلائـــقَ النمـــام ... ويَحِطُّـــه عـــن خطـــةِ الإكـــرام

قـــدْك اتئـــد عـــن لومـــه جهـــلاً بـــه ... فجمالـــــه زَارٍ علـــى اللُّـــوَّامِ

هـــو أشـــهر الخـــيري حُســـنا فاحبُـــهُ ... مـــن بينـــه بتحيـــة وســـلام

متنـــزه عـــن أن يُـــرى مســـتهترا ... إلا إذا اكتحـــل الـــورى بنمـــام

مســـتطرف في خَلقـــه مســـتظرف ... في خُلقـــه مستحســـن الإلمـــام

لم يـــرض إلا المســـك مســـكا جسْـــمُه ... وبـــه يبـــوح إليـــك في الإظـــلام (١)

ثالثا :اختياراته في الفصل الثالث :

صرح أبو الوليد بمسلكه الذي اختطه في الفصل الثالث من كتابه والذي خصصه لكل ما قيل في نوع بعينه من الزهور والأنوار، غير أن ملامح هذا المنهج لم تتحدد عنده تماماً. إذ نجده يقول في صدارة هذا الفصل :

« يجب أن نبدأ بأول الأنوار وأبكر الأزهار وهو من النواوير الربيعية، نور البهار، ولكن ما كان من النواوير باقياً في كل وقت، وثاويا مع كل فصل هو أول على الحقيقة، وصدر في هذه الطريقة كالآس والياسمين »(٢).

(١) البديع في وصف البديع /٧٦.

(٢) البديع في وصف البديع /٧٧.

تراجع أبو الوليد في حديثه عن البهار أولاً، وتقديمه على النواوير الربيعية بعدما صرح بهذا فقد رأى أن كثيراً من الأنوار يبقى دائماً متواجداً على مدار الفصل مثل الآس والياسمين، لذا وجد أن الأحق والأجدر الحديث عنهما قبل البهار.

ونجده يقدم للآس بمقدمة موجزة إذ يقول :

« أما الآس فقد فُضل قديماً على ضروب الأنوار وصنوف الأزهار، وصيغت في ذلك حسان الأشعار، إذ شجره يقوم مقام النوار ثم يزيده نُوارُهُ جمالاً ثانياً، ويضيف إليه كمالاً زائداً، وأما الياسمين فإن نوره لا ينقطع أبداً كله، ولا يذهب جميعه، فنبدأبهما ثم نذكر النواوير على أزمنتها.» (١).

.. وجمع أبو الوليد كل ما قيل عن الآس، من قطع شعرية ونثرية ظهرت في عصره، وتغنى به الشعراء، واستعملها الكتاب كنوع من الرسائل والدعوات.

(١) نفس السابق /٧٧.

إذ يقول : من أحسن ما قيل فيه ما أنشد فيه لنفسه الشيخ أبو عبد الله بن مسعود وهو :

الآسُ آسُ لأَسـى — كـلِّ فـؤادٍ مكتئب
في كـل فصـل زاهـرٌ — ومـا سـواه منقلـب
إذا سَـرى منـه الشـذا — في آخـر الليـل وهـب
أهـدى لأرواح بـه — أرواح روح وطـرب
كأنـه في جنـة الـ — خلـد نَمـا ثـم اقتضب

وصف الشعراء والكتاب «الآس» بصفات عديدة وأضفوا عليه العديد من المحاسن التي تميزه عن النواوير الأخرى، فتجعله منفرداً متميزاً، وممن وصفه من الشعراء وأبدع في وصفه أبو عامر بن مسلمة.

يقول أبو الوليد :

« ومن الفائت الفائق والرائع الرائق في وصفه، قطعة خاطبني بها الوزير أبو عامر بن مسلمة، وبعث معها مُطيباً وهي :

يـا واحـد الأدبـاءِ والشـعراءِ — وابـن الكـرامِ السـادةِ النجبـاء
إنـي بعثـتُ مُطيبـا نَمقْتُـهُ — مـن روض داري دارك الغنـاء
مـن آسـه لازلـتَ تأسـو عـاطِرا — وتُبيـدُ مـا يَعْـدو مـن اَلأعـداءِ
يحكـي بطيـب عَرفِـهِ وبحسـنه — خُلقـا خليقـا منـك بـالاطراءِ
هـو كالسـماءِ إذا بـدتْ مخضـرة — لاحـت عليهـا أنجـمُ الجـوزاءِ
فاقبلـه مـن صَـبٍّ بحبـك وُدُّهُ — ألا تـزالَ أخـا عـلاً وعَـلاَءِ(١)

❁❁❁

(١) البديع في وصف البديع /٧٨.

ونلمح من القطعة إطراء الوزير أبو عامر لأبي الوليد، فقد وصفه بأنه يُعد من الأدباء والشعراء المتميزين والمعروفين ويشيد بحسبه ونسبه ثم يتدرج في حديثه عن رسالته التي بعث بها إليه وهي باقة من الآس اختارها من روضته بعد أن نمقها وهذبها، فوجده خير رسول منه إليه، ويطلب منه في البيت الأخير أن يقبله لأنه خير رسول بين المحبين.

ورد أبو الوليد على أبي عامر مجاوباً يقول:

يـــا مـــن حَبْـــوت بـــوده حوبـــاء ... وهـــي الفـــداءُ لَـــهْ مِـــنْ الأسْـــوَاءِ

وصَـــلَ المطيـــب مُعربـــا عـــن طيـــب مـــن ... أهْـــداهُ مكتئبـــا مـــن الأهـــواءِ

أظميتـــه مـــن بعـــد مـــا أرويتـــه ... بمدامـــةٍ فيهـــا دَوَاءُ الـــداءِ

مـــا كـــان أشـــهر طيبـــه لـــو لم يكـــن ... متســـتراً بالقطعـــة الغـــراءِ

أربـــى عليـــه نظمـــك الحلـــو الحُلـــىَ ... فـــانحط بعـــد الرتبـــة العليـــاءِ

إن كـــان نـــور الآس في ورقاتـــهِ ... نُـــوراً بَـــدَا في ليلـــةٍ ظلمـــاءِ

فجمـــال خلقـــك حـــين يـــنظم عقـــدَه ... كالبـــدر يـــنظم أنجـــمُ الجـــوزاءِ

.. أبدع أبو الوليد في الرد على الوزير أبو عامر، وأعرب في رده عن سعادته وفرحه مما أرسله له أبو عامر، فكأنه روى ظمأه وشفاه مما كان يشعر به من ألم وحزن، ويكثر أبو الوليد من القطع الشعرية في وصف «الآس» ذلك الزهر المتواجد طيلة العام، والذي أوجب تقديمه على الأزاهير الأخرى.

ومما أورده أبو الوليد عن الياسمين البستاني قول ذى الوزارتين القاضي :

وياسمين حسن المنظرِ يفوقُ في الْمرآي وفي المخْبرِ

كأنَّهُ من فوق أغصانِهِ دراهم في مطرفٍ أخضر

ويعقب أبو الوليد على هذين البيتين قائلاً : هذا التشبيه معدوم الشبيه ومما يوازيه رقة ودقة قوله في موضع آخر :-

وياسمين حسن المجَلى كأنه في قُضَبهِ الضَافيهْ

زُمرُّد رصع ما بينهُ مداهنٌ من فضةٍ صافيةْ

ومما عُرف عن الياسمين أنها زهرة السحر والجمال التي تجذب الأنظار وتسحر الألباب عندما يراها الإنسان لا يملك إلا أن يسبح بعظمة الواحد القهار وهذا ما دَعَا ذو الوزارتين إلى التسبيح والتعظيم إذ يقول :

سبحان من أنشأ ذا الياسمين خَلْقا بَديعا لِلنُهى والعُيُونْ

كأنما الأغصان من تحته والورق المخضوضِرُ المُسْتَبينْ

زُمُرّدٌ نضِّدَ فَوْق الرُّبى وهوْ على أعْلاهُ دُرٌّ مَصُونْ

آياتُ صدق شاهداتٌ بأن لَيْسَ لمن أبْدَعَها من قَرينْ (١)

ويقول أبو عمر الرمادي:

انظر إلى رَوْض ياسمين لم يرد الورد وهَوْ وارد

كأنه عِدّةً ولَوْنا أكُفُّ حُور بلا سواعد

.. وقال أبو الوليد معلقاً أن الصفات التي خلعها الرمادي على الياسمين صفات مطبوعة والتشبيهات فيها بديعة.

---

(١) البديع في وصف البديع /٨١.

ومن أكثر الأزاهير ظهوراً وتواجداً في بستان أبى الوليد «الياسمين» إذ لقى عناية خاصة منه، حتى وصل إلى غايته في الجمال والسحر، وجذب إليه نظر ذي الوزارتين أبي عمر عباد وهو في زيارة لبستان له إذ يقول :

كأنما ياسميننا الغضُّ ... كواكبٌ في السماء تَبْيَضُّ
الطرقُ الحُمْرُ في جَوانبه ... كخد عذراءَ نالَهُ عَضُّ

فقد شبه النوْرَ بالكواكب، وخضرة ورقه بخضرة السماء.

ويقول أبو الوليد معقباً ومعجباً : « لم أسمع لأحد قبله وصف حمرته، وهي تكثر عند قلة الياسمين في زمن الشتاء وتقل عند كثرته.

وكما أورد أبو الوليد من تشبيهات رائعة ومعاني صافية في الياسمين، وجدناه قد أتى بمعانٍ غريبة وتشبيهات عجيبة في وصفه على لسان أبي الحسن بن عَليّ إذ يقول :

وشَرْبٍ(١) أَدْلَجوا للأُنس لما ... أُصيغَ على يَدِ الشَّجَر الذَّمارُ
سرتْ بهم إلى ثغر التَصابي ... ركابٌ لا يُخافُ لها عِثِارُ
فَحَلوا آمنين على الأماني ... فكان لهم من الشجر انتصارُ
عَريش الياسمين لهمْ سَمَاءٌ ... وخضرةُ أرضِهِ لهم قرارُ
به حَجَفٌ من النوار بيضٌ ... مفضضه وأرماحُ صغارٌ
فَوجْهُ نهارهم بالظل ليل ... وليلهم بأنجمِهِ نهارُ
فإن أوحشت من شمس تبدت ... عليك بشمس كفرها العقارُ
وما شهد الكرام وغى كحربٍ ... جراحُ المقصدين بها جبارُ(١)

(١) الشرب : مصدر ويقصد به القوم الذين يشربون، ويدلجون : من الإدلاج وهو السير بالليل.

ونتقل أبو الوليد فيورد بعض القطع التي وردت في وصف الياسمين البستاني والذي عُرف ببقائه على مدار فصول السنة، ولذا وجد أبو الوليد أنه أحق بالذكر من غيره من النواوير، كما أتى ببعض القطع الشعرية التي وردت بشأن الياسمين البري الفصلي الذي لا يأتي إلا في فصل الربيع يقول أبو الوليد:

« الياسمين البري، هو الظيان، وليس يبقى مدة العام، إنما هو ربيعي ولكن قدمته على الربيعية لتسميته باسم المتقدم وانتسابه إليه فوصلت ذكره بذكره بما قيل فيه مع أن وصفه لم يكثر، وذكره لم يتكرر، فليس يحتمل إفراداً، وإنما يجب أن يكون تبعاً لهذا، وخلق شجره ونوره كخلق البستاني إلا أن نوره أصغر .»

وما ذكره أبو الوليد في الظيان قطع قليلة منها قطعة شعرية لذي الوزارتين «القاضي» وهو يصف لونه بالصفرة إذ يقول :

كأن لَوْنَ الظيان حين بَدا ... نُوَّارُهُ أصْفراً على وَرَقِه

لَوْنَ محبٍّ جَفَاهُ ذو ملل ... فاصفَرَّ من سُقْمِه ومن أَرقِه

❁❁❁

ومن القطع المنشدة التي ذكرها أبو الوليد في كتابه، قطعة لأبي الأصبغ بن عبد العزيز يقول فيها :

فضائل الظيان معروفةٌ ... تروقُ في المنظر والخُبْرِ

فاقَ النواوير معاً أنه ... منزه يأوى إلى البر

وإنه يأنف أن يقتنى ... على سبيل الملك والقسر

فآثر الصحراءَ مستأنساً ... في ليلهِ بالأنجم الزهر

(١) البديع في وصف الربيع /٨٢.

❁❁❁

عدد الشاعر في الأبيات السابقة صفات «الظيان» المعروفة ومنها تواجده في الصحراء طلقا حرا، بعيدا عن الأسر أو التملك أو الاستعباد فهو يرفض هذا التملك الذي يقع فيه بعض الأزاهير، ولذا وجدناه يأنس الوحشة في الصحراء مع ما يماثله في الرفعة والسمو.

ولا يقتصر الشاعر على ذكر فضائله، إنما يذكر بعض صفاته الشكلية قائلاً :-

متى تزره تلق منْ عرفِهِ ... ما شئت من طيب ومن عِطرِ

أبراده خضر ولكنها ... مخصوصة باللَبن الصُفر

وينقلنا أبو الوليد إلى نور آخر، أكثر من الحديث عنه، وفاضل بينه وبين الورد، وكتب فيه رسالته المعروفة ألا وهو نور « البهار» إذ يقول :

« ويسمى البهار بالنرجس، وأكثر أشعار المشرقين اسمه فيها «النرجس» وأما الأندلسيون فاستعملوا اللغتين ».

واستوقفتني مقطوعة شعرية علق عليها أبو الوليد قائلاً «أنها حلال من السحر» والمقطوعة لإسماعيل بن بلال القائل في بعض منها :-

أهدى إليكَ من النوار أحسنه ... قَدْ ضل في وصفه من قلبي الناس

كأنها نقر من فضة وضعت ... فيها من الذهب الإبريز أكواس

على الزمرد قامت عند منبتها ... في كل نوارةٍ مفتوحة كاس (١)

❁❁❁

وقد نصَّبَ بعض الشعراء «البهار» ملكاً على النواوير الأخرى، ومنهم أحمد بن هشام بن عبد العزيز وقد وصفه في قطعة شعرية بعث بها إلى الإمام عبد الرحمن الناصر لدين الله وهي :

(١) نفس السابق /٨٥.

يا مليكاً من الملوك مُصَفَّى   والَّذي جَلَّ أنْ يُحَدَّدُ وصْفَا
عَبْدُكَ الشاكر المؤمل أهدى   نرجساً كالعبير نشْراً وعرفا
كُلما فاحَ نشْرُهُ قُلتَ إلفٌ   في دُجَا الليل عاطِرٌ زارَ إلفا
وإذا ما لحظته قلت ألحا   ظُ خليع قَدْ مال سكرا فأعفى
منه مثل الإبريز في صفرة اللو   ن ومنه مثل الجُمان المصفى
فكأني بما أقلبُ منه   صيرفيٌّ أضحى يُحاوِلُ صَرْفا (١)

ويقول أبو الوليد معقباً على الأبيات السابقة «أنها من أبدع التشبيهات».

❁❁❁

وممن وصفه فأدق في وصفه أبو جعفر بن عثمان المصحفي إذ يقول فيه :–

حكى الفضة البيضاءَ والتبرَ منظرا   ولكنه بالنفس ألطى وأعلقُ
فصيحٌ إذا استنطقته عن زمانِهِ   وما خلتُ أن النّوْر من قبل ينطقُ
يبثك أنفاس الحبيب وإنها   لأذكى من المسك الذكي وأعبقُ(٢)

لقد وصف المصحفي البهار بألفاظ رطبة، ومعانٍ عذِبة، وصف لونه الأصفر بلون الذهب والأبيض بلون الفضة، ويحاكيه كأنه إنسان ناطق يفصح عن زمانه وما عهد الاستنطاق في النواوير. ويتجلَى في وصف رائحته والتي تفوق رائحة المسك الذكي.

ودائما ما يقرن الشعراء وصفهم للبهار بالعيون التي أرهقها السهد والسهر مثل قول أبى عمر أحمد بن فرج :–

ونرجس تطرفُ أجفانه   كَمقْلَةٍ قَدْ دَبَّ فيها الوَسَنْ(١)

---

(١) البديع في وصف البديع /٨٦.
(٢) نفس السابق /٨٦.

كأنـــــه مـــــن صـــــفرةِ عاشِـــقٍ يلـــبس للـــبينِ ثيـــابَ الحَـــزَنْ

ومن التشبيهات العقيمة التي أوردها أبو الوليد في كتابه عن وصف «البهار» قول ابن القرشية :

كـــأن الثَّـــرىَ ســـتْرٌ تَمُـــدُ خلالَـــهُ بـــأكواس راح راحهـــن الكواعـــبُ

يُســـتترّنَ مـــن فـــرطِ الحيـــاءِ معاصـــما بأكمـــامهنَّ الخضـــرِ عمَّـــن يراقِـــبُ

۞۞۞

وللأزاهير تأثير فعال في نفس الشعراء جعلتهم يتقننون في رسم لوحات بديعة في معرض ربيعهم، وجعلتهم يتغنون بجمالها وسحرها الخلاب وليس أرق من «البهار» في استجاشة نفوسهم وتحريك مشاعرهم وها هو ذا الوزير أبو عامر بن مسلمه يتغنى بجماله قائلاً :

قَـــدْ جاءنـــا رائـــد الربيـــع بمنظـــر رائـــق بـــديع

هـــو البهـــار الـــذي تعلـــى وجـــلَّ في حســـنَه الرفيـــع

كأنـــه مُقلـــةٌ تشـــكي إلى الحيـــا قلَّـــة الهَجـــوع

أكـــف كـــافورة قـــد أوْمـــتْ بكـــأسِ تـــبرٍ إلى الربيـــع

أو شـــعلة النـــار وسْـــط مـــاءٍ جُسّـــدَ مـــن ثَوْبِـــهِ النصـــوع

۞۞۞

وينقلنا أبو الوليد من الإبداع إلى الإغراب ومما أورده من الغريب المستغرب في وصف البهار قول أبي بكر بن القوطية :

زُمُـــرُّدٌ أَوْرقـــتْ أغصـــانه دُرَرا فَـــرَاحَ كالرَّاحـــةِ البيضـــاءِ مُنْفَطِـــرَا

يُقـــلُّ ياقوتـــهْ صـــفراءَ فاقعـــةً كأنهـــا التـــبرُ مـــن فـــوق اللجـــين جـــرى

---

(١) الوسن : شدة النوم، أو أوله، أو النعاس.

ثُمتْ دعاهُ بَهاراً كيّ يُهَجِّنَهُ وقَدْ حَوىَ قصيات السَّبق إذ بَهرَا

كمقْلةٍ دَبَّ في أجفانها وسَنٌ فَدَنَّفتْ غير أن لم يَدْر طَعْمَ كِرى

❁❁❁

واستخدم كثير من الشعراء «البهار» في الدعوات والرسائل بين الإخوة والمحبين وقد رأوه خير رسول وأجمل ونيس وأفصح من يعبر عن المشاعر والأحاسيس وهذه أبيات رائعة أرسلها ابن القوطية إلى الوزير أبى عامر يقول فيها –:

قل إيحانة الغلا والمكارم والكريم النجار وابن الأكارم

قَدْ بعثنا إليكَ يا خَيْرَ ناسٍ بالدنانير فَوْقَ مَحْضِ الدَّراهمْ

لم يَسُسْ طبْعَ هذه جَعْفَرٌ قسطٌّ ولا ضْربَ تلك راحة قاسِمْ

ببهار حكى جمالك حسنا وحكى عَرْفَكَ الذكيّ لِناسمْ

يتشكى الظما وفي يدك الرّ يُّ فإن لم تُروّهِ كنْتَ ظالمْ

دمتْ للمهرجان والعيد والنيرُوزِ إلفاً من الحوادث سالمْ

فجاوبه أبو عامر بأبيات بديهة تشاكل أبياته براعة وهي :

في النرجس الغضّ شبهٌ لا خفاءَ بهِ للنَّيريْن يُرى في طالع الزّهَر

فَصُفرةُ الشمس قد ردَّته صفرتها وُقدَّ مبيضهُ من صفحةِ القمَر

كأنَّ ياقوتةٌ صَفْراءَقَدْ طُبِعتْ في غصنه حوْلَهُ ستٌ من الدَرِرِ

حُسْنٌ يَدُلُّ على إتقانِ صانِعهِ سُبحانُه مبدِعِ الأخلاق والصُّوَرِ

❁❁❁

ويتابع أبو الوليد وصف أزهار الربيع زهرة تلو زهرة، فمن الآس والياسمين والبهار إلى البنفسج... ومن أروع ما سجله أبو الوليد في كتابه عنه. قول أبي جعفر بن الآبار وهو :

صادَ الزمان ورَوِّ غُلَّةَصادٍ	بُمدامةٍ لم تَعْدُ مَوْلد عَادِ
أوَ ما ترى ثُغْرَ الثَّرى متبسما	لكَ عَنْ مَرادٍ مُوفقٍ ومُرادِ
وبنفسجُ الروضِ الأغَر كأنَّهُ	في حُسْنِهِ لَعَسٌ عليه بادِ
لا بل كاجنحة الفراش تألفت	نَسقاً وقد خضبت من الفِرصادِ
روضٌ يظل اللَّحظ يعبُد حُسْنَهُ	كعبادة العليا بني عِبَادِ
يزهى المحافل والجحافل مِنُهُم	أَسْنَى عميد للورى وعمادِ
الحاجب المحجوب طاهر عِرضِهِ	بِنَدَى جَوادٍ في الرهانِ جواد
صلتان مازالت حِداد سيوفِهِ	وقناهُ تكسو الشرك ثوب حداد(١)

۞۞۞

عقب أبو الوليد على هذه الأبيات شارحاً ما غَمض فيها من معاني فوضح معنى صاد وموضعه أول الأبيات وهو من صاديته إذا داريته، وصاد الثاني اسم الفاعل من الصَّدا وهو العطش.

والفرصاد : التوت، وقوله في الرهان جَوادٍ معناه سابق وجَواد قبله بمعنى كريم وحِدادُ سيوفه معناه قاطعة ماضية، وحِداد الثانية بمعنى لبسة الحزن وهيئته.

.. وقد وصل ابن الأبار هذه الأبيات بمديحه للحاجب، وإنني أرى أن الأبيات الأربعة بداءً من البيت الثالث إلى السادس هي من أروع الأبيات وصفاً لحسن البنفسج وجماله.

---

(١) البديع في وصف البديع /٩١.

ومن البديع الحسن إلى الغريب المستغرب مما قيل في وصف البنفسج من مثل قول أبى الحسن بن علي وقد وصل ما قاله بمدح ذي الوزارتين أبي عمرو عباد وهو :

ألا حبَّذا المحبوب نور البنفسج — وأحبب بمرآهُ البديع وأبهج
حياةٌ وروح العليل نسيمُه — ومنظرهُ أنس المتيم والشج
ونَوْارُهُ كالغصن في صدرِ أَغْيَدٍ — لمختلس سَهْوَ الرقيب ومُدْمج (١)
وحُمُر اليواقيت الوضاء وصفرها — تألقتا في لونه المتضرج (٢)
فلو نظمته الحاليات لأشرقتْ — جَواهرُهُ في كل قرطٍ ودملج (٣)
محاسنه من حسن عَبادٍ الرّضا — ولألأؤه مِنْ وَجهِهِ المتبلج (٤)

بدأ الشاعر بذكر أثر هذا الزهر على النفس وما يحدثه فيها من شفاء للعليل فهو الحياة والروح للسقيم، ويصف نواره بالحسن والجمال ويشبهه بالغصن في صدر أغيد ويصف لون زهره الأصفر والأحمر وهما ممتزجان في بعضهما بالجمال والسحر.

وما زال أبو الوليد يبحث بين درر الشعراء عن كل ما قيل عن البنفسج ولقد استوقفتني لؤلؤة غالية وثمينة صنعها صانعها فأبدع في صنعها حتى تجلت لنا تحفة فنية رائعة وهي :

وبنفسج أربى على النوَّارِ — وأفادنا عطراً بلا عَطَارِ
فكأنما أعلاهُ في فيروزج — وبِساطُهُ في خُضرةِ الأشجارِ

---

(١) أغيد : الأغيد من النبات الناعم المتثنى.
(٢) المتضرج : تضرج بالدم : تلطخ به، وتضرج النوار : تفتح.
(٣) الدملج : المعضد من الجلي.
(٤) المتبلج : المشرق المضيء.

وافَـــاكَ في وقـــت الزيـــارة قـائمــاً	وقـــد انحنـــى للـــوحي بالأســـرارِ
هـــو مِســـكةٌ حَلقـــت لهـــا أوراقهـــا	في لَوْنهـــا مـــن صـــنعة الجبـــار
أو رقعـــة زرقـــاء مـــن كبـــد الســـما	في يَـــوم صـــحوٍ فتنـــةُ النظـــارِ
أو لُمَّـــة الحســـناء تحسِـــبُ وسْـــطَها	للزعفـــران مواضِـــعَ الآثـــارِ
أو لجَـــةٌ كجـــلاءُ هزَّتهـــا الصَّـــبا	فتكســـرت لينـــا علـــى مِقْـــدارِ
أو درع حاجبنـــا أتتـــه صـــقيلة	وقَـــدْ انـــبرى للفتـــكِ بالكفـــارِ
ملـــكٌ قلـــوبُ الأُسْـــدِبين ضـــلوعِهِ	وبوجْهِـــهِ قَمـــرٌ مـــن الأقمـــارِ
فـــإذا ســـطا فالصُّـــبحُ داجٍ مظلـــم	وإذا عفـــا فالليـــلُ في إســـفارِ (١)

❁❁❁

وما زال أبو الوليد يحرص في منهجه على الترتيب الزمني للنواوير فيذكر الخيري النمام بعد البنفسج ولا يعرض عنه، كما لا يعرض عن أي زهر ذكره في هذا الفصل بعينه، إنما نجده يحوطه ويشمله ويكمله ويجمله بكل ما ذكر في شأنه من قطع شعرية أو نثرية.

ويذكر القطع المصنوعة والمطبوعة والغريبة والمستغربة، ولا يتوانى عن ذكر أيٍّ منها، ومما قاله من شعر مطبوع في الخيري النمام قول أبي القاسم بن شبراق وهو :

وبنفســـجي اللـــون يكـــتم طِيبـــهُ	عِنْـــدَ الشُـــروقِ وفي الظـــلامِ يـــنّم بـــهْ
فكأنـــه ذو مـــذهبٍ ألفـــى الـــدجا	ســـتراً وأمســـكَ مُصـــبحاً عـــن مذهبـــهْ
أو مستســـر عَـــنْ غَـــريمٍ فاقَـــهُ	غَريـــتْ لجَاجـــاً نَفْسُـــهُ بتطلبـــهْ
والصّـــبحُ مـــن غرمائِـــهِ ولأجـــل ذا	لـــكَ يستســـرُ تلـــوذا عـــن مطلبـــهْ (١)

---

(١) البديع في وصف البديع /٩٢.

قال أبو الوليد معلقاً على هذه الأبيات «أنها بديعة مطبوعة».

وذكر أبو الوليد مقطوعات شعرية كثيرة، قالها الشعراء عن الخيري، ومنهم الفقيه أبو الحسن بن عليّ، وأبو علي الإدريسي، وأبو بكر بن القوطية، وأبو جعفر بن الأبار، وأبو بكر بن نصر الذي أنشد قائلاً :

وريحاننا الخيري محضا فإنني تخيرته بين النواوير ناضرا
لما أنه يضحى من العرف عاطلا نهارا ويمسى مدة الليل عاطرا
كأنّ له لب الأريب فما ترى مشاهدة اللذات إلا مساهرا

.. وزهر الخيري من الأزاهير التي تقرب بين النفوس وتمزج العواطف وترقق المشاعر، لذا استخدمها البعض كرسول بين الأصدقاء والمحبين.

.. وذكر أبو الوليد في كتابه بأن صاحب الشرطة أبا الوليد العثماني قد أرسل إليه بمطيب خيري وكتب بعد قطعة قال فيها :

« بعثت بخيري جاز حد التبكير بأنسه، فجاز قصب السبق في أبناء جنسه، منظره أربى على المسك بنضرته، ومخبره قصر عن شيمك على بسطته !! فاقبله بحق المجد عليك، ووسائل الحمد إليك، بهجا منظره، أرجا محبره إذا دنا الظلام، ونام الأنام إلى من استدعى عرفه، واستجدى عُرفه ».

وجاوبه أبو الوليد بقوله :

« فلما تعاهدت خيرك عهاد[٢] شيمك، ودامت عليه ديم كرمك، بكر متنعما منها متنفسا عنها، ولا ند له إلا الند، ولا مسك له إلا المسك وقد قبضته

(١) نفس السابق/٩٤.

(٢) العهاد : الحديث من المطر.

مشغوفا به مستلذا بقربه، متعجبا من حسن اختياره لاستتاره باستهتاره، تحت جناح الظلام، ليسلم من الجناح[١] والملام[٢] ».

وتتضمن رسالة أبى الوليد بعض الأبيات الشعرية التي وصف بها الخيري وهي:–

نهارُ خيريك في ليله ... كذلك الليل نهار الأديبْ

ينمُّ فيه وينامُ الضُحى ... تصاوُنا عن كل أمرٍ مغيبْ

كأنما الليل حبيب له ... فهو إذا حلَّ اكتسى كل طيبْ

كأنما الصبح رقيب لَهُ ... فيرعوى عند طلوع الرَّقيبْ

ويفيض أبو الوليد الحديث في كتابه عن الخيري النّمام أكثر من حديثه عن الخيري الأصفر لقلة ما ورد فيه من مقطوعات شعرية أو نثرية.

ويأتي حديث أبو الوليد عن الورد، ملك النواوير كما سماه بعض الشعراء، والحديث عنه مؤخرا بعد الصنوف السابقة لا يعني تراخي الكاتب أو تكاسله أو إهماله له إنما يعني الترتيب الزمني الذي جعل الورد يأتي في دوره.

وهذا ما ذهب إليه أبو الوليد حيث قال :

« لم يوجب تأخير أمرِهِ ولا ولَّد إرجاء ذكره تأخر منزلته، ولا انحطاط رتبته، وإنما بنينا أن نقدم من تقدم به زمانه ونبدأ بمن بكر أوانه، وقد مضت مشاهير الأنوار المبكرة التي كثر القول فيها وتردد الوصف لها ».

ويستعرض أبو الوليد في كتابه كل ما أورده الشعراء والكتاب من مقطوعات شعرية أو نثرية تتصل بالورد فذكر قطعا كثيرة للحاجب أبي حسن بن عثمان

(١) الجناح : بالفتح من معانيه الجانب والناحية، وبالضم الإثم.

(٢) البديع في وصف الربيع /٩٧.

المصحفي، وزياد بن أفلح وأبى مروان وابن القوطية، وأبى القاسم بن شبراق وغيرهم.

.. وقد لمحت أثناء حديث أبى الوليد عن «الورد» أنه أتى بمقطوعات كثيرة ومتنوعة لم يأتِ بها من قبل في وصف أي نوْر من النواوير السابقة، كما استخدمه في الإهداء والدعوات ومن الرسائل المهداه التي تحمل أجمل التهاني وأرقها مصحوبة بباقة من الورد رسالة أبى الحسن بن علي إلى ذي الوزارتين القاضي وقد أرسلها في صحبة ورد نادٍ زاهي في وقت مبكر من فصول السنة وهو ما أطلق عليه «سباط»(١) يقول فيها :

ليهنئك يا واحِدَ المَكْرُمَاتِ ... وأهدى الملوك لقَصْدِ الصِّراطِ
جنَى من الورد قَدْ حَثَّهُ ... إليكَ تَوَدُّدُهُ في سباطِ
وما ذاكَ أيام إقبالِهِ ... ولا وقت تنضيده في البِساطِ
أصابَ بإسراعِهِ فاحْبُهُ ... وَغَفَرا لِسائِرِه فَهُو خَاطِ

❁❁❁

ويُعد أبو جعفر بن الأبار من أكثر الشعراء الذين أجادوا في وصف الورد فقد كتب إلى الوزير أبي عامر ابن مسلمة في زمن الربيع يصف الورد، ويخصه على إيثار الأنس، وجلاء صدأ النفس، فأحسن إحسانا يقرب على متأمليه ويبعد على متناوليه، إذ يقول :

الوَرْدُ وَرْدٌ للعيونِ مِن الظَّما ... فاذكُره أذِمَّتَهُ الوكيدَةَ واحفَظِ
في لبسة التقوى يروقكَ منظرا ... فامنحْه بالإنصاف طرقكَ والحظِ
وإذا الهجوع نأى فخيْرُ مُنَومٍ ... وإذا السرور دَنا فأحسن مُوقظِ
يا ممطري بفعالِهِ ومقالِهِ ... ومُحَافِظِي بِوِدادِه لا مُحْفِظِي

---

(١) السباط : هو الشهر الذي بين الشتاء والربيع.

أقطـــن إذا أبـــدى الزمـــان تبالهـــا وإذا تـــــواهن جفنـــــه فاســـــتيقظ

فـــالهم يفـــرق مـــن لآلـــئ فرقهـــا والحُـــزْن يطفـــأ عـــن ســـناها الملتظِـــي

صـــفراء صـــفر الكـــأس مـــن جثمانهـــا تتخطـــف الأبصـــار مهمـــا يلحـــظِ (١)

ويعقب أبو الوليد معللاً وشارحاً لبعض الأبيات فيقول : في لبسه التقوى يعني الحياء من قوله تعالى : ﴿وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ.... ﴾[٢] قيل الحياء.

وقولـه : محـافظي هـو مـن الحفـظ والمراعـاة، ومحفظـي مـن الإحفـاظ وهـو الإغضاب.

وقوله : فالهم يفرق يرتاع ويفزع، والفرق لغة في المفرق من الرأس، وقوله : صفر الكأس من جثمانها : الصفر : الخالية، والجثمان : الجسم وفيه لغتان : جثمان وجُسْمان.

ولأبي الوليد العديد من القطع الشعرية والنثرية التي اختص بها الورد دون سواه من الأزاهير ونذكر له بعض الأبيات الشعرية إذ يقول :

انظـــر إلى خَـــدِ الربيـــع مركبـــا في وَجْـــهِ هـــذا المهرجـــان الرائـــقِ

وَرْدٌ تقـــدم إذ تـــأخر واغتـــدى في الحســـنِ والإحســـان أول سَـــابِقِ

وافـــاكَ مشـــتملا بثـــوب حيائـــه حُجـــلاً لأنْ حيّـــاك آخـــر لاحِـــقِ

❁❁❁

وينقلنا أبو الوليد إلى روضة «النيلوفر» حيث الجمال الفائق، والسحر الغالب والنيلوفر كلمة فارسية أصلها « نيلوبر» وهو مركب من (نيل) وهو الذي يصبغ به، ومن (بر) وهو اسم الجناح وكأنه قيل مجنح نيل لأن الورقة كأنها مصبوغة من الجناحين، فمعناه في الفارسية النيلي الأجنحة، والنيلي الأرياش.

(١) البديع في وصف الربيع /١٠٩.
(٢) سورة الأعراف/آية (٢٥).

ومن بديعيات ما قيل في وصف « النيلوفر» قول ذي الوزارتين القاضي الجليل وهو :

يـــا حســـن بَهجـــة ذا النيلـــوفر الأرج وطيـــب مخـــبرِه في الفـــوحِ والأَرج

كأنَّـــــهُ جَـــــامُ دُرّ في تـألفِـــــهِ قَـدْ أحكمـوا وسْـطه فصـاً مـن السـبج (١)

وللقاضي الجليل تشبهين غريبين للنيلوفر إذ يقول :-

كأنمـــا النيلوفـــر المستحســـن الغـــضُّ الـــبهجُ

مُقْلَـــــةُ خَـــــودٍ مُلِئـــــتْ ســـــحرا وغنْجـــــا ودعـــــج

أو خـــــاتمٌ مـــــن فضـــــةٍ وفضـــــةٌ مِـــــنَ السَّـــــبَجْ (٢)

ويعقب أبو الوليد بأن تشبيه الشاعر في البيت الثاني بالعين السواد الذي بين بياضه هو أولى بهذا التشبيه، وأحق أن يصاغ فيه من كل ما شبه بالعين من البهار وغيره، الذي لا سواد فيه يؤيد حقيقة تشبيهه.

ويقول أبو الوليد « مثل هذا التشبيه معدوم الشبيه والتمثيل المنقطع المثيل لو وقع لمشتغل بصناعة الشعر عاكف على صناعة النظم مجهد نفسه فيها معان لمعانيها لاستغرب غاية الاستغراب، واستعجب نهاية الاستعجاب، فكيف ترى فضله وتُعاين نُبلَه، وهو لا يُعاني هذا ولا يتفرغ له وإنما هو عفو سجيته، وفيض بديهته، صان الله لنا حذقه كما أوجب علينا حقه.

وقف أبو الوليد موقف الناقد الحاذق المستحسن لأبيات القاضي الجليل وقرن مع استحسانه التعليل للتفضيل مما يدل على مهارته.

---

(١) الزهور ونباتات الزينة /٣٧٠ وكتاب الجامع لمفردات الأدوية (١٨٦/٤).

(٢) السبج : حرز أسود.

وكما أتى بالغريب والمستغرب من المعاني التي وردت في وصف « النيلوفر» وجدناه نقل كل نادر وغريب تناوله الشعراء في وصفهم له، كقول أبى عمر يوسف بن هارون الرمادي :–

إذا سقى الله روضةً مطرا فخصَّ بالسَّقْي كل نيلوفر
تستر أوْراقُهُ زمُرُّدُهُ ليلاً وعند النهارِ لا تستر
خافت عليه اللصوص فاشتملت عليه ليلاً من خوف أن يظهر
إذا الزنابير مِنْ مَغالقه لم تتحفظ فبينها تقبَرْ
كأن أجفانه جفون الذي أهواه لا تستطيع أن تسهر
كأنها كؤوسُ فضةٍ فرشت قيعانها بالزمرد الأخضر (١)

كان أبو الوليد عالماً بالأزاهير صنوفها ورياحينها وفائدتها ولهذا وجدناه يعقب على الأبيات موضحا ومعللاً فعل النيلوفر بالزنابير والمقصود «النحل» فيذكر أن زهر النيلوفر يُسمى قاتل النحل.

.. ويعلق أبو الوليد قائلاً :–

ولم أر لكل من صنع فيه، وعنى بوصفه ذكر أمر الزنابير إلا بن هارون الرمادي والحسن بن علي إذ يقول :

لقبوه بقاتل النحل لما أبْصَرُوا النحل مقْصَدا لسهامِهِ

ويذكر أبو الوليد في كتابه وصفاً بديعاً للنيلوفر ورد على ألسنة الشعراء الذين بهرهم بجماله وسحره فتغنوا به وذكروا له تشبيهات مبتكرة عجيبة ومن تشبيه أبى جعفر بن الأبار وقد وصل الأبيات بمديح ذي الوزارتين إذ يقول :–

إذا النور خُصَّ بمدح بما لنيلوفر الروض لا يُعْبَدُ

(١) البديع في وصف الربيع /١٢٢.

وأوراقــــه كعبــــة مــــن لجَــــين توســــطها الحجــــر الأســــودُ

توسُّــــط عَبَّــــادِ المُرْتجــــى لظــــى الضــــرب والحــــرب إذ تُوقَــــدُ

هُمَــــامٌ إذا هَــــمَ أضــــحت لــــه متــــون الظِّبــــى والقَنــــا تُرعَــــدُ

❁❁❁

شبهه الشاعر أوراق النيلوفر بصفاء لون الكعبة وثمرته السوداء بالحجر الأسود ويذكر أبو الوليد الكثير من القطع الشعرية في وصف «النيلوفر» وخاصة شعر ابن الأبار الذي تنوع في وصفه وأبدع في مدحه، وأتى بكل ما يشمله من صفات وسمات وخاصه في لونه.

وقال أبو الوليد ما يوازيه من هذا الوصف:

وروضــــة رضــــيت عــــن صــــوب الحيــــا المســــتمرِّ

فــــأظهرت نــــور نيلــــو فــــر مــــنير أغــــرِّ

كمحــــبر مــــن لجــــين فيــــه بقيــــة حِــــبرِ(١)

ولم يخلُ كتاب البديع في وصف الربيع من وصف نور أو زهر لم يتناوله الشعراء حتى ولو كان تناولهم وإنشادهم فيه قليلاً أو نادرا مثل وصفهم لنور اللوز فهذا الصنف من النواوير، لم يذكره أبو الوليد في وصف نور أو نورين في الفصل الثاني من كتابه وقد علل ذلك قائلاً :–

« لم أعامله بالتأخير إلا لقلة الوصف له والقول فيه، وذلك كل ما يأتي مما يبكر، وإنما له التأخير من أجل قلة القول فيه والتشبيه له ».

وممن وصفه من الشعراء وصفاً فائقاً صاحب الشرطة بن القوطية إذ يقول :–

وأبــــيضِ اللَّــــون ذِفلــــيّ غلائلــــه عليــــه مــــن نَسْــــج كــــانونيْنِ أبــــرادُ

يقــــول مبصــــرُه ســــبحان فــــاطِرِهِ كيــــف اســــتقلت بهــــذا الحســــن أفــــرادُ

---

(١) البديع في وصف الربيع /١٢٦.

يـــزورُ والنَّـــورُ لم تفـــتح كمائِمُـــهُ ولا تَقدَّمَـــــهُ لِلـــــزَّورِ ميعـــــادُ

كأنـــــهُ رائــــدٌ أو طــــالع نجُــــدا أو قائــــدٌ وصـــنوف النـــور أجنــــادُ

تشـــبه الخـــوخ في حســـن النـــوّار بـــه يــا قــوم حتــى مــن الأشــجار حُسَّــادُ(١)

وصف بن القوطية نور اللوز وصفاً دقيقا، فذكر لونه الأبيض الناصع وحسنه الباهر الذي جذب إليه الأنظار فسبحت بعظمة الخالق الوهاب.
ويشبهه في البيت الرابع بأفضل تشبيه، حيث جعله رائداً وقائداً وصنوف النواوير الأخرى جنود عنده، ويشبهه بالخوخ في حسن النوار به، ويختتم الشاعر مقطوعته بتعجبه من الحاسدين له من النواوير والأشجار.

ويتابع أبو الوليد وصفه لنواوير الربيع وتدوين كل مقطوعة قيلت في وصف أيٍ منها، فمن نور اللوز إلى الأقحوان إلى شقائق النعمان وهو «الشقر» والذي أكثر من الحديث عنه، وكان له فيه بيتان هما :-

ريـــاضٌ يُحَيِّيهـــا الحيـــا بانسِـــكابِهِ فتَسْـــغر للنُظَّـــارِ عـــن منظـــرٍ نَضْـــرِ

إذا مـــا بـــدت فيهـــا الشَـــقائِقُ خِلتَهـــا شـــعور العـــذارى لحـــن في الخـــر الحمـــر

❁❁❁

ويذكر أبو الوليد في كتابه ما قيل عن «نور الباقلاء» وهو الجرجير واسمه المشهور في المدن« الفول»، ويصف البعض زهرته فيشبهوها بلون الورد الأحمر ومن بديع ما قيل فيه قول أبى جعفر بن الأبار :

وبـــــاقلاءٍ باقـــــــل يُعْجِــــبُ حُسْــــناً مـــن رمـــق

كأنمــــــا نــــــوارُهُ إذا راقَ خلقـــــا وخُلـــــق

أذقـــــان بـــــيض غلفـــــتْ لمبصِـــــرٍ ومنتشِـــــقِ

أو عـــــين حـــــور جـــــرت إلى مآقيهـــــا الحَـــــذقَ

---

(١) البديع في وصف الربيع /١٢٧.

وهُدْبها مستبطنٌ   في وَرَقٍ من الورق
أو جنح ليل بَقِيَتْ   منه بقايا في فلق
كأن للمسك بها   متسقا بنيات طُرُقْ (١)
وَعرفُه مُعَرَّفٌ   بأنه فيه فَتَقْ

يشرح أبو الوليد ما في الشعر من تشبيهات بديعة معللا وناقدا، ذاكرا أن قول الشاعر (بأن جرت إلى مآقيها الحدَق)، بديع وغريب، لأن السواد الذي جعله حدقة العين هو في ناحية من النور وليس متوسطا له فكأن الحدقة قد جرت إلى المآق وهو طرف العين مما يلي الأنف.

وهُدْبها مستبطن وهو مما أكمل به الوصف وتمم التشبيه لأن في الورقة التي ظاهرها تلك الصفة المتقدمة خطوطا سوداء جعلها هُدبا لتلك العيون وهي التي عنى بقوله : كأن للمسك به متسقا بنيات طرق، وقوله : أوثنن بها بلق جمع ثُنةٍ وهي الشعر الذي يكون على مؤخَّرِ الرسغ.

ولأبي الوليد شعر قاله في الباقلاء منه :–

أرى الباقلاءَ الباقِلَ اللون لابسا   يُرود سماء من سحائبها غُذِي
ترى نَورَهُ يلتاحُ في ورقاته   كبُلق جِيادٍ في جلال زُمردِ (٢)

۞۞۞

وينقلنا أبو الوليد إلى بساتين فيها من النواوير الكثير و الغريب ويشجينا بما تغنى به الشعراء من وصفهم لها، ومنها نور الكتان إذ يقول في وصفه.

كأن نور الكتان حين بَدَا   وقد جلا حُسْنُهُ صَدَا الأَنْفُسْ
أكفُّ فيروزج معاصمها   قدسترتُهنَّ حضرةُ الملبسْ

(١) بنية الطريق : طريق صغير يتشعب من الجادة.
(٢) البديع في وصف الربيع /١٣٣.

أولا فـــزرق اليـــاقوت قـــد وضـــعت علـــى بســـاط يـــروقُ مـــن ســـندسْ

❁❁❁

ولم يذكر أبو الوليد من الشعر كثير عن « نور الغالبة» وهو يشبه الياسمين في تفتحه، وتمتاز أوراقه بالاخضرار الزاهي ومن أبدع ما قيل فيه قول أبو القاسم بن الخراز وهو :-

ورختجَـــى ســـحابي قوائمُـــهُ خضـــرٌ حكـــى يا سمينـــا في تفتحِـــهِ
تمـــيسُ قضـــبانه والـــريحُ تعطفهـــا مَشـــىَ النزيـــفِ تهـــادَى في ترنحِـــهِ
تمـــيسُ قُضْـــبانُه والـــريحُ تعطفُهـــا مَشْـــىَ النزيـــفِ تَهَـــادَى في ترنحـــه
كـــأنَّ أوراقـــه في حُســـن خضـــرتها مـــن الزمـــردِ أســـناهُ وأملحـــه

❁❁❁

ويختتم أبو الوليد الفصل الثالث من كتابه في وصف نور الرمان والجلنار،فاختار من التشبيهات الأنيقة قول أبو جعفر بن الأبار في وصفه لنور الرمان إذ يقول :

أعجـــبْ بأيـــكِ الرمـــان حـــين بـــدا نُـــوَّارُهُ المحتـــوى مَـــدى السَّـــبْقِ
مثـــل أكـــف الـــدمى مُحَنـــأةً أَوْكبنـــان الحمـــائم الـــوُرْقِ
أو كحقـــاقٍ تفتحـــت فبـــدت غلائـــل وَسْـــطُها مِـــنْ الـــبرقِ(١)

ويقول أبو الوليد عن الجلنار أنه « ورد الرمان كما عُرف عند الفرس »[٢] وقد ذكره ابن البيطار في الجامع لمفردات الأدوية بأن منه ما هو أبيض ومورد وأحمر وخلقته مثل خلق الرمان فيصفه قائلاً :-

(١) البديع في وصف الربيع /١٣٧.
(٢) الجامع لمفردات الأدوية/(١٦٤/١).

وجُلنـــــــــــــار تَبـــــــــــدّى يختـــــــالُ في جـــــــل نـــــــارِ

أحلـــــى حُلـــــى مـــــن جميـــــعِ الأنـــــــــــوار والأزهـــــــــارِ

حكـــــــى خـــــــدودَ العـــــــذارى قَـــــــدْ شـــــــربتْ بـــــــاحمرارِ

وحمسَـــــــــــتْ بـــــــــأكف الألحـــــــاظ والأبصـــــــــارِ

۞۞۞

وينهي أبو الوليد كتابه « البديع في وصف الربيع » بخاتمة ذكر فيها حرصه في الحصول على كل وقع في يده من مقطوعات شعرية ونثرية قالها شعراء عصره عن صنوف النواوير بأنواعها وغرائبها ليجمعها في كتاب خاص بها يتميز به عن سابقيه ممن تحدثوا عن الأزاهير المتوجدة على مدار فصول السنة.

ويجعل من نواوير «الربيع» حَدَثا أدبياً له أثره وتأثيره على الساحة الأدبية.

۞۞۞

الفصل الثانـــي

كتاب للّه البديع في وصف الربيع »

رؤية فنية

يعتبر كتاب « البديع في وصف الربيع » تحفة فنية رائعة، لما اشتمل عليه من مقطوعات شعرية ونثرية بديعة، اختارها أبو الوليد بعناية فائقة فحصد بذلك درراً و جواهر ثمينة، ظهرت في الأبيات والألفاظ والمعاني والتشبيهات، وقد صرح أبو الوليد بذلك قائلاً في مقدمة الكتاب :

« تأمل أيها الناظر في كتابي تأمل اليقظ المنتقد والمميز، تَرَ أغرب التشبيهات وأعجب الصفات، وأبرع الأبيات، وأبدع الكلمات ».

وقصد أبو الوليد من ذلك التنويه والإشارة المقصودة ما وصل إليه الأندلسيون شعراء وكتاب من بلاغة وفن فاقوا فيه المشارقة وتميزوا عنهم بما وصلوا إليه. إذ يقول :

« فلهم من الاختراع الفائق، والابتداع الرائق وحسن التشبيه والتمثيل، ما لا يقوم أولئك مقامهم فيه ».

والمقصود بأولئك «المشارقة» وقد ذكرنا سابقاً أن فى مقولة أبى الوليد التحيز لأهل الأندلس، الذين تغنوا جميعاً بالشعر ولو لم يكن من بينهم من يعرف الشعر، فسحر الطبيعة وجمالها الفتان جعلهم يبدعون في أشعارهم، ويأتون بالغريب والمستغرب والمطبوع والمصنوع.

ومن أبرز الملامح الفنية في الكتاب :

براعة التصوير والتشخيص :

جاءت اختيارات ابي الوليد ممثلة لحقبة ناضجة من الأدب الأندلسي سواء نصوصه الشعرية أو النثرية، مما يشي بأن ما جمعه أبو الوليد وتوقف عنده كان يمثل حقبة متميزة ارتقت فيها إبداعات الأندلسيين، ووصلت إلى مستوى من

الصنعة الفنية والبراعة التعبيرية يؤهلهم لأن يكون لهم قصب السبق في ميادين وساحات فنية عديدة، ومن ثم تبعث همم العلماء والرواة لتسجيل تلك الإبداعات والتنويه بها، بل والمباهاة بمن أبدعوها، ووصف البيئة الأندلسية التي أتاحت للأدباء والشعراء هذا الفيض من المشاهد الساحرة والطبية الخلابة التي أنطقتهم بذلك السحر الحلال !!.

ويتجلى ذلك في العديد من المقطوعات الشعرية المختارة من مثل قول عبد الملك بن نفيل :

بكت السماء على الربى فتبسمت منها ثغورٌ عن عقائِل جوهر

أهدى الربيع إليه سكب سمائه فكسا الثرى من كل لون أزهر

إذ صور الشاعر السماء بشخص يبكي على الربى والمقصود بالبكاء هنا هو سقوط المطر الذي جعل الربى تستقبله بابتسامة واسعة كشفت عن عقائل جوهر لشدة احتياجها إليه.

والبيت الثاني يصور فيه الشاعر، ما قدمه الربيع إلى الثرى من هدايا ثمينة حيث كساه من كل لون وزهر فبدا في صورة حسنة بديعة.

ويبرز التصوير أيضاً في قول أبي أيوب بن بطال المتلمس :

تبدت لنا الأرض مزهوة علينا ببهجة أثوابها

كأن أزاهرها أكؤس حدتها أنامل شرابها

كأن الغصون لها أذرع تناولها بعض أصحابها

ومن تجليات الصور البارزة قول أبى بكر عبادة بن ماء السماء :

ولعوب عشقت روض الثرى فهي تأتيه على طُول البعد

فيرى الروض إذا ما وصلت أرِج العَرْف من الطيب الجسد

عطــــــرا ملتبســــــا ملتحفــــــا   في ســــرابيل مــــن الحســــن جُــــدَدْ

كمحـــــب زار محبوبـــــا لـــــه   فتحلـــــى للقـــــاه واســـــتعد

صور الشاعر السحابة بامرأة لعوب عشقت روض الثرى ولكنها مارست عليه ما أتقنته من فنون الحب، فلم تأتيه تباعا، بل على طول البعد، وإذا أتت إليه يهش الروض لاستقبالها ويصوره الشاعر بالمحب الذي يزوره حبيبه فيتحلى للقائه ويستعد له بأبهى ما عنده.

وتتعدد الصور ويتنوع التشخيص في كل مقطوعة شعرية دوَّنها أبوالوليد في كتابه، حتى أننا نستطيع أن نذكر أن كل مقطوعة لم تخل من تصوير وتشخيص، حتى شعر أبو الوليد نفسه المذكور في الكتاب شمله التشخيص والتصوير.. إذ يقول :

بكــت الســماء فأضــحكت ســن الثــرى   بمــــدامع نظمــــت عليــــه جــــوهرا

فكأنهـــا خرقـــاء تنثـــر عقـــدها   وكأنــــه مســــتغنم أن ينشــــرا

شبه السماء بالشخص الذي يبكي، وتنهمر دموعه غزاراً وتتلقاها الأرض وكأنها جواهر تتناثر وتتساقط عليه فتنتظم عقداً بديعاً.

ونلاحظ تكرار هذه الصور المتمثلة في بكاء السماء وسقوط دررها من المطر على الثرى وخروج الجواهر من بين الرياض من أزاهير وأنوار وأرى أن هذا التكرار لا عيب فيه، بل هو المعهود والمنطقي ؛ إذ بدون المطر تنعدم الحياة وتجدب الأرض، وتصبح عقيماً غير منتجة.

ويقول أبو عمر الجياني في بعض أبيات له :

اخلــــع عليــــه مــــن الربيــــع ووشــــيه بُــــرداً مصــــنف

حتــــى تــــرى أنــــواره   وكأنهــــا أعشــــار مُصــــحف

وتخال مرفضّ الندى في روضه شكلا وأحرف

ومن الصور البديعة ما جسده أحمد بن سعد في مقطوعة له يقول فيها :-

كست الأرض بساطاً رائقاً بطنها سدَّاه والأرض نسج
أخرجت أسرارها أحرجت رُبّ سرٍ أخرج الصدر خرج
كمحب ضاق وجدا صدره فبدا ما كان في الصدر اعتلج

صور الشاعر سقوط المطر على الأرض، الذى نتج عنه خروج ما في باطنها من كنوز تمثلت في سندس أخضر كسا الأرض جمالاً وروعة، وأن هذا الخروج كخروج السر من صدر محب كتم حبه بين ضلوعه حتى اعتمله الضيق والحرج فباح بما عنده من أسرار ما عنده.

.. ومن الصور البديعة ما جاء على لسان أبو عمر الرمادي الذي وصف الربيع بصور جلية بديعة، إذ يقول :-

في إثرها وقعت ملامح تجتلي التأريخ بين سحائب ومخول
فكأنها جيش بدهم خيول غازٍ إلى جيش بشهب خيول

وظهرت مهارة أبى الوليد في رصده لكل غريب مستغرب يتصل بموضوع الكتاب مما أضفى على كتابه تميزا فريدا.

ومن غريب الصور قول ابن القرشية :

كأن الثرى ستر تُمد خلاله بأكواس راح راحهن الكواعب
يسترن من فرط الحياء معاصما بأكمامهن الخضر عَمَّن يراقب

فقد جعل قُضبه الخضر معاصم مستورة بأكمام خضر، وجعل أكفها مبيضة وكؤوسها مصفرة.

ومن الصور الغريبة قول الفقيه أبى الحسن واصفاً نواوير الربيع :-

كأن ظل الأقاحي مدامع مُرْفَضَّة
أو لؤلؤ فوق أرض من المها مبيضة
كأنما الورد صدْرٌ أبقى به اللثم عضه
أو خد أغيد قد أخ جلته حال ممضة

شبه الشاعر ظل الأقحوان بالمدامع أو باللؤلؤ في بياضه وشفافيته وشبه الورد بلونه المعهود بالخد الذي يعتوره احمرار نتج عن حياء أو خجل.

ووجدناه يصور الباقلاء فيشبه زهره بالخال على خد أبيض إذ يقول :-

وباقلاء قد أبدى بَنوْره الحسن مَحْضهْ
كأنما هو خال نجد بيضاء بضة

❁❁❁

وتميز أبو الوليد في إبراز الصور النادرة في وصف الربيع والنواوير التي لم نجدها إلا في كتابه، من مثل صور الورد والبهار في شعر عبد الرحمن الناصر إذ يقول :-

كأن الورد يعلوه الندى وجْنَةُ المعشوق تَنْدَى عَرَقا
يتفقى عن بَهار فاقع خِلْته بالوردِ يطوي وَمَقا
كالمحبين الوصوليين غدا خجلا هذا وهذا فرِقا

ومن الصور والتشبيهات العجيبة قول الوزير أبى عامر بن مسلمة يصف البهار والبنفسج قائلاً :-

قدم البهار مع البنفسج فاشربـ ـنَّ عليهما بين الرياضِ الغضَّةْ
هذا كمعشوق وعاشقه وذا مثل الحزين دموعه مرفضَّه
وترى البهارَ كأنه ياقوتة صفراءُ تحملها أكفٌّ بَضهْ

وقول الفقيه أبى الحسن واصفاً الخيري الأصفر :-

كأنما الخيري مستهتر بالحب قد أنحله العشق

صفرته تنطق عن حالِهِ ورُبَّ حالٍ دونها النطق

❁❁❁

وأتى أبو الوليد ببعض التشبيهات السائدة والمعتادة لشعراء عصره كتشبيه النواوير بالذهب والفضة والأحجار الكريمة من مثل قوله في مقطوعة شعرية:-

كأن نور الكتان حين بدا وقَدْ جلا حسنه صدأ الأنفس

أكف فيروزج معاصمها قد سترتهن خضرة الملبس

أو لا فزرق الياقوت قد وضعت على بساط تروق من سندس

❁❁❁

ولصاحب الشرطة وصف حسن غريب إذ يقول :

زمرد أورقت أغصانه دُررا فراح كالراحة البيضاء منفطرا

يقل ياقوته صفراء فاقعة كأنها التبرُ من فوق اللُجين جرى

ويقول الوزير أبو عامر واصفا النرجس بالياقوته الصفراء :-

في النرجس الغض شبه لا خفاء به للنيرين يُرى في طالع الزهر

كأن ياقوته صفراء قد طبعت في غصنه حوله ست من الدرر

ومن هنا وجدنا ازدحاماً ملحوظاً للصور و التشبيهات في كل فصل من فصول الكتاب منها ما هو مألوف ومعتاد، ومنها ما هو غريب مستغرب، ومنها ما هو نادر عجيب. وإن دَلَ هذا على شيء فإنما يدل على ثقافة أبي الوليد الواسعة في اختياره لهذه الصور التي بدت وكأنها معرض فني بديع.

اختيارات أبي الوليد ودلالة اللغة :

لعلنا عندما نتفرس اختيارات أبي الوليد في كتابه البديع في وصف الربيع تداخلنا قناعة بأن لغة الشعر والنثر الأندلسي في عصره اتسمت بالوضوح، وارتقت عن الغرابة أو الحوشية من جهة كما سمت عن الابتذال، واتسم كثير من نماذجها ورسائلها بالجزالة، وسلامة التركيب، وفصاحة الأسلوب ؛ مما يؤكد عراقة أهل الأندلس، وحرصهم على عربيتهم، واعتزازهم بها، وقد أسلفنا أنهم . كما ظهر من مسلك أبي الوليد . كانوا ينظرون إلى أدب المشارقة بعين الإكبار، ويتعاملون معه على انه النموذج المحتذى، والمثال المبتغى، ويتباهون دائما أنهم لا يقلون عن المشارقة قدرة وإبداعا.

وهذه نماذج تعبر عن اللغة المستخدمة والألفاظ المبثوثة في النصوص المختارة، مثل ألفاظ :(المسك، والشذا، والنفحة، والسنا) في قوله :

نفحة المسك من شذا نفحاته خجل الخد من سنا خجلاته

ويقول في وصف النرجس ذاكراً (الروض، والسحاب، والنسيم).

وروض أريض لم يزل يغتدَى بما يروح عليه من سحاب ويغتدى

إذا ما سرى منه نسيم لوالِهٍ سرى عنه جِلبابُ الجوى المتوقد

ولعلنا نلحظ في هذين البيتين التناغم الموسيقي الداخلي النابع من تكرار ألفاظ ذات إيقاع وجرس كما يبدو في كلمتي (روض أريض) وتكرار كلمة (سرى) في مصراعيْ البيت الثاني منهما.

وتتجلى الألفاظ الجزلة في قول أبى جعفر بن الأبار :

لبس الربيع الطلق بُرد شبابه وافترعن عُتبا ه بعد عتابه

ملـــك الفصـــول حبـــا الثـــرى بثرائـــه متبرجـــا لـــو هـــادِهِ وهضـــابه

ويبدو التناغم جليا بين (عتباه وعتابه) (و وهاده وهضابه).

❁❁❁

ومما يلاحظ أيضا على اللغة المستخدمة تكرار الاستخدام الرقمي الحسابي في بعض المقطوعات الشعرية الواردة في الكتاب من مثل قول أبى بكر :

وثلاثـــة لمـــا اجـــتمعن بمجلـــس نـــبَّهن منـــى هِمـــةً لم تَـــنْعُسِ

ويقول ابن هانئ الأندلسي :

وثلاثـــة لم تجتمـــع في مجلـــس إلا لمثلـــك والأديـــب أريـــب

❁❁❁

وبرزت لنا بعض المقطوعات الشعرية ذات الألفاظ السهلة والتي بدت كحلل قشيبه لتنوع الألوان فيها من مثل قول جعفر بن فلاح :-

فـــا حمر ذا وابـــيض ذا واصـــفر ذا فبـــدت دلائـــل كلـــهن غريـــب

فكـــأن هـــذا عاشـــق وكـــأن ذا كُ مُعشَّـــق وكـــأن ذاك رقيـــب

فيبدو توارد الألوان تبعا لتواتر الأزهار وتوافقها، فالأحمر للورد، والأبيض للياسمين والأصفر للنرجس، وكرر الشاعر لفظ (كأن) للتمثيل والتشبيه، كما نلحظ التناغم بين (عاشق ومعشق).

❁❁❁

امتزاج المدح بوصف الطبيعة :

يعد امتزاج المديح بوصف الطبيعة من أبرز السمات الفنية التي لاحظتها في الكتاب وأظهرها أبو الوليد في العديد مما دونه من مقطوعات شعرية، وكانت هذه الظاهرة شائعة ومنتشرة بين الشعراء الأندلسيين وخاصة في القرن الخامس

الهجري حتى بدت وكأنها تقليد متبع لدى شعراء الأندلس الذين اتخذوها كمقدمات وصفية طبيعية وصولاً بها للمديح.

.. وظهر هذا الامتزاج في كثير من الأشعار مثل قول أبى الوليد نفسه في وصف الورد، وخلوصه إلى مدح أبيه مشيدا بسماحته وبأسه وأخلاقه ووفائه إذ يقول :

إنما الورد في ذرا شجراته ... كأجل الملوك في هيئاته
رائق منظرا وخبرا وفذ ... في حلاه التي حلت وصفاته
نفحة المسك من شذا نفحاته ... خجل الخد من سنا خجلاته
مزجت حمرة اليواقيت بالد ... رفجاءت به على حَسْب ذاته
مثلما جاء من سماح وبأس ... خلق الحميري سم عداته

❁❁❁

ويتضمن الكتاب الكثير من هذه القطع التي يمزج الشعراء فيها وصفهم للطبيعة بالمديح من مثل قول أبى بكر يصف الرياض وصولا إلى مدح ابن القرشية عبد العزيز بن منذر بن عبد الرحمن الناصر قائلاً :

إن قالت الأرض المنُعم أرضها ... لي الفضل في فخري عليك فسلمي
فخضرة ما فيها يفوقك خضرة ... ونوارها فيه ثواقب أنجُم
وإن جئتها بالشمس والبدر و الحيا ... مفاخرة جاءت بأسنى وأكرم
بعبد العزيز بن الخلائف والذي ... جميع المعالي ينتمي حيث ينتمي

❁❁❁

وللفقيه أبى الحسن بن علي قطعة في وصف الربيع يصل بها إلى مدح الوزير أبى بكر عبد الله ابن ذي الوزارتين قائلاً :

قد قلت للروض ونواره ... نوعان تبري وفضي

وعَرفـــه مختلـــف طيبـــه صـــنفان خمـــري ومســـكي
ووجـــه عبـــد الله قـــد لاح لـــي وهـــو مـــن البهجـــة دُري
شـــم غرســـك الأرضـــي إن الـــذي أبصـــرته غـــرس سمـــاوي
حســـنك نـــوري بـــلا مِريـــةٍ وحســـن عبـــد الله نُـــوري
أضـــحى صـــفيرا وهـــو في قـــدره نـــيلا كـــبير الشـــأن علـــوي

۞۞۞

ويقول أبو الوزير أبو عامر بن مسلمة واصفا «البهار» مادحاً ذا الوزارتين :-

أرى في البهـــار النرجســـي تلألـــؤا عيـــونُ الـــورى مشـــغوفةٌ بالتِماحِـــهِ
كـــأن الريـــاض الخضـــر صـــغن لباسَـــهُ بشـــكلين مـــن مـــاء الغمـــام وراحِـــهِ
أو الـــدهر رداهُ ســـروراً بشخصـــه رداءيـــن مـــن إســـفاره وصـــباحِهِ
فحُلَّتـــه في لونهـــا ذهبيـــةٌ وفضـــية أثنـــاء عقْـــدِ وشـــاحِهِ
كمـــا قـــد تحلـــى الـــدهر مـــن بعـــد عطلـــةٍ بجـــودِ ابـــن عبـــاد وفضـــل سماحِـــهِ
بـــه نيلـــت الآمـــال في كـــل بُغْيـــةٍ وبوشـــر بُـــردُ الأمـــنِ تحـــت جناحِـــهِ

۞۞۞

المعـارضـات :

أثبت أبو الوليد في كتابه العديد من المعارضات الشعرية والتي انتشرت بشكل ملحوظ في القرن الخامس الهجري، لدى شعراء الأندلس إذ ظهر التنافس بين الشعراء في هذا المضمار، ولوحظ التنوع في رصد هذه المعارضات الذي يتبعه التفاوت في الأحاسيس والمشاعر.

فوجدنا في الكتاب :ـ

- معارضات تظهر الإبداع والمهارة والتحذلق فقط.
- معارضات تظهر تجاوب الشعراء وتفاعلهم مع نظرائهم وإخوانهم.

- معارضات تظهر المجاراة والتحدي، وإظهار مقدرة الشعراء.

ومن النوع الأخير.. معارضة أبى الوليد في قصيدة له، رد فيها على قصيدة أبى الوزير أبي عامرالتي مطلعها :

يـــا واحـــد الأدبـــاء والشـــعراء وابـــن الكـــرام الســـادة النجبـــاء

إنـــي بعثـــت مطيبـــا نمقتـــه مـــن روض داري دارك الغنـــاء

فرد عليه أبو الوليد قائلاً :

يـــا مـــن حبـــوت بـــوده حوبـــاء وهـــي الفـــدا لـــه مـــن الأســـواء

وصـــل المطيـــب معربـــا عـــن طيـــب منـــه أهـــداه مكتئبـــا مـــن الأهـــداء

.. وهذه معارضة الوزير أبى عامر بن مسلمة يرد فيها على قصيدة أبى جعفر بن الأبار واصفا الورد، يقول :-

الـــورد ورد للعيـــون مـــن الظَّمـــا فـــاذكر أذمتـــه الوكيـــدة واحفـــظ

في لبســـه التقـــوى يروقـــك منظـــرا فامنحـــه بالإنصـــاف طرفـــك والحـــظ

فرد عليه أبو عامر قائلاً :

يـــا واحـــد الأدبـــاء غـــير مُـــدَافع ومـــن اغتـــدى في الفهـــم نـــاراً تلتظـــى

وافـــاني الشـــعر البـــديع نِظامُـــهُ فـــأزاح عـــني كـــل أمـــرٍ محفـــظ

وقد مر بنا من تلك المعارضات والمطارحات الكثير.

المفاضلات والمحاورات :

رصد أبو الوليد في كتابه العديد من المفاضلات بين الأزهار وحفظ جزءا كبيرا منها في آخر الفصل الثاني من كتابه إذ يقول :

« ومما يصلح أن يكون في هذا الباب ما وقع في النواوير من تفضيل وتغليب أو جرى بينها من تفاضل وتفاخر ».

ومن الشعراء من فضل الورد على صنوف الأزاهير الأخرى، ومنهم من فضل البهار على الورد، ومنهم من فضل الخيري...، ومن أبرز المفاضلات، مفاضلة أبى حفص بن برد في رسالته التي أرسلها إلى الوزير أبى الوليد بن جهور يصف فيها النواوير الخمسة ويفاضل بينها وبين الورد.

ولأبي الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر رسالة في المفاضلة بين الأزهار، رد فيها على ابن برد، وكان يفاضل بين الأزاهير والبهار، وقد عرض أبو الوليد هذه المفاضلات في صورة حوار فني بديع بين الأزهار حتى تبين لنا – أننا لا نتابع حوارات خيالية مصطنعة!! بل كأننا نقف أمام كائنات عاقلة ناطقة تقول، وتدافع، وتحاور، وتناظر.

ولم يقتصر الكتاب في المفاضلات على هاتين الرسالتين، بل عرض أبو الوليد العديد من شعر الأندلسيين وهم يفاضلون بين الأزهار، وهي ظاهرة أندلسية اشتهرت عن شعراء الأندلس وأدبائها، وعُدَّتْ من إبداعاتهم...، من مثل مفاضلة أبى الأصبغ بين الخيري والبنفسج في قوله:

مـــا للبنفســـج يـــدعي التفضـــيلا متحـــاملا ويَعْـــدّ ذَاكَ جمـــيلا

هيهـــات قـــد بـــرح الخفـــاءُ فَعُـــد إلـــي حكـــم التناصـــف واتـــرك التخيـــيلا

الفضـــل للخـــيري إلا أنهـــم جهلـــوا وَلَمَّـــا يُحْسِـــنُوا التـــأويلا

ويفاضل الوزير أبو عامر بن مسلمة بين البهار والنرجس قائلاً :-

ونرجس هَبَّ يرنو بمقلة ليس تطرف
مثل النجوم تساقطن في رداء مُفَوَّف
يحكي البهار ولكن بهارنا منه أصلف

۞۞۞

ويفاضل الفقيه أبو الحسن بن علي بين الخيري الأصفر والنمام قائلاً :-

أرى أصفر الخيري يبدي من الضَّنى تباريح مكلوم الفؤاد سقيمه
ويكذبه سحر بأعين نوره وقضب له تندى بماء نعيمه
يساجل آفاق السماء بروضةٍ وأنجمها حُسنا بصفر نجومه
وذي هفوة قد ظن أن شقيقه وحارسه قد بذَّهُ بنسيمه
أفي القدر مخدوم لديك وخادم وذو كرم في المجد مثل لئيمه
وسيّان طيباً ليله ونهاره وليس خصوص الخير مثل عمومه

۞۞۞

ومما لاشك فيه أن هذه المعارضات والمفاضلات طبيعية تمخضت من البيئة الساحرة التي عاش فيها شعراء الأندلس. الذين اتخذوا من الطبيعة موضوع حياتهم.

۞۞۞

الفصل الثالث

« كتاب البديع في وصف الربيع »

قيمته الأدبية والنقدية

يُعد كتاب «البديع في وصف الربيع» لأبي الوليد إسماعيل بن عامر الحميري مصدراً مهما من مصادر الأدب الأندلسي وبخاصة في بابه وموضوعه وهو الروضيات والربيعيات حتى زمن مؤلفه ؛ إذ كان أبو الوليد كاتباً وأديبا وناقدا، استطاع بمهارة أن يختار نصوص كتابه اختياراً متميزاً فجعله متفرداً عن معالجات غيره من المؤلفين والمصنفين.

- ومن المناسب هنا أن نرصد أهم الإضافات المتميزة التي أضافها أبو الوليد في حقل الدراسات الأدبية والنقدية من خلال كتابه الذي عرضنا له في هذه الدراسة ومن أهمها :

– عقَّب أبو الوليد الحميري على كثير من الشواهد والنماذج التي جمعها في كتابه، وكانت شخصيته الناقدة، وحسه الأدبي حاضران على الدوام، فجعل قاريء الكتاب يعايش الموضوع بقدر من التشويق والمتعة الفنية ؛ لأنه ليس أمام نصوص شعرية ونثرية تحشد، بل أمام ناقد بصير، وراوٍ متمكن يقدم له الرأي والمعلومة والتمهيد والتعليق والتعقيب والتفسير.. إلخ.

من مثل قوله : (ومن التشبيهات العقم) و (من التشبيه المعدوم الشبيه) و (من حسن التشبيه) و (من الفائت الفائق والرائع الرائق) و (مما يستحسن فيه ويستغرب بمعانيه) و (من غريب الوصف في عجيب الرصف) و (من البديع المختار) و (من الأبيات الرائقة السمات الفائقة الصفات) و (من أطبع ما قيل وأبدع وأعلى ما شبه) و (من المعاني الدقيقة في الألفاظ الأنيقة)... الخ.

... من هنا وجدنا أبا الوليد لايجمع الشواهد وحسب بل يتأمل في تركيب الصورة، ويستجلي ما تنطوي عليه من إبداع يثير الإعجاب بها، ويصدر ذلك كله

عن ذوق فني رفيع وحس أدبي مرهف، حتى ولو كان نقده الظاهر نقدا تأثريا ذاتياً.

= رأينا أبا الوليد يجمع في كتابه كل ما وقع عليه نظره مما هو مدون مكتوب من شعر ونثر، إلى جانب ما أُملي عليه، وما أنشد إليه، وما قيل له عن بديهة وارتجال ولم يتخل عن نظرته النقدية التي لازمته في تسجيله لكل مقطوعة، من مثل قوله على أبيات أبي عامر (أنها بديهية بديعة) وعلى أبيات أبي الحسن علي بن أبي غالب المنشدة (أن مرماها رشيق، ومغزاها دقيق)، ووصفه لبعض الأبيات المنشدة أنها مطبوعة وبديعة ومنها الغريبة المستغربة.

وقد امتدح أدباء الأندلس ونقاده حضور البديهة والقدرة على الاتجال، وعدوا ذلك من أمارات الموهبة التي يتفاضل بها المبدعون، يقول ابن شهيد الأندلسي :

« يتبين تقصير المقصر، وفضل السابق المبرز إذا اصطكت الركب، وازدحمت الحِلق، واستعجل المقال، ولم توجد فسحة لفكرة، ولا أمكنت نظرة لروية » [1].

- يتضح من حديث أبي الوليد الحميري في كتابه " البديع... " أنه صنف الشعراء الذين أخذ عنهم إلى صنفين:

أحدهما :

شعراء متبعون مبتكرون.. وهؤلاء أشاد بهم أبو الوليد، ووقف منهم موقفا حسنا وقد صرح بهذا في كثير من تعقيباته من.. مثل قوله : (أبدع ما قيل، وأبرع ما شبه به، وأرفع ما أمي عليَّ).. ثم بعد ذلك يذكر الأبيات.

(١) الذخيرة/الأول/٢٤٤.

الآخـــــر :

شعراء متبعون مقلدون وهؤلاء لم يجدوا منه إلا حكماً مطلقا من مثل قوله : (ومن التشبيهات المعروفة).

ونضيف إلى هذا أنه كان يوجههم أحياناً بحاسته النقدية من مثل توجيهه لأبي عمر يوسف بن هارون الرمادي في بيتين وصف فيهما الورد قائلاً :

وفي الـــورد غصـــنا والأقـــاحي محاســـن ســـرقن مـــن الأحبـــاب للمتشـــوق

خـــدود عـــذارى لـــو تقصـــى حياؤهـــا وأفـــواه حـــور لـــو سمحـــن بمنطـــق

قال أبو الوليد معقباً ناقداً موجهاً : « هذان التشبيهان معروفان لاسيما قلبهما ولكن لو فهما حسنتهما معا، وأبدعت فيها بدعا ».

– نقل أبو الوليد الكثير من المقطوعات الشعرية والنثرية التي تمثل البيئة الأندلسية وتكشف عنها وعن طبيعتها، واعتبر تمثلها واستيحاءها مثار إبداع، وإعجاب وملائمة للطبع، وبعدا عن التصنع.. من مثل قوله عن شعر عبد الله بن فراج الذي وصف النرجس بقوله :–

ونـــــرجس تطـــــرف أجفانـــــه كمقلـــــة قـــــد دب فيهـــــا الوســـــن

كأنـــــه مـــــن صـــــفرة عاشـــــق يلـــــبس للـــــبين ثيـــــاب الحـــــزن

❁❁❁

قال أبو الوليد : (جرى في ثياب الحزن على مذهب الأندلس، إذ ثياب حزنهم بيض وهو تشبيه بديع، وتمثيل رفيع، ومعنى مطبوع.).

– وضحت رؤية أبو الوليد النقدية خاصة في الموازنات والمعارضات التي ضمنها كتابه، وصرح قائلاً : (وله قطعة توازي هذه القطعة جمالا، وتضاهيها كمالاً) ثم يذكر القطعة وله أحكاما قطعية في بعض الموازنات مثل قوله عن شعر أبو عبد الملك الطليق واصفا الورد والبهار.. أنه قصيد مشهور لم يصنع بعده ولا قبله على عروضه وقافيته ما يوازيه جمالاً، ولا يضاهيه كمالا.

– وجدنا أبا الوليد بحسه النقدي يفاضل بين الألفاظ والمعاني الواردة في المقطوعات الشعرية والنثرية، فيصف بعضها بالغريب المستغرب ويثني على بعضها بما فيه من حلاوة وسهولة ويصفها بأنها رطبة ومعانيها عذبة، وجزلة، ويعلق عليها قائلاً : (ومن المعاني الدقيقة في الألفاظ الأنيقة، ومن السحر الحلال المستوفي الكمال ومن المعنى المستوعب لجميع الأحوال، ومن المعنى المستولي على غاية الكمال المستوفي نهاية الجمال).

.. وعلى الرغم من آراء أبي الوليد الواضحة في كتابه لم نجد من يعني ويهتم بها من قبل الباحثين في تاريخ النقد الأدبي، رغم قيمتها وأهميتها خاصة في تلك الفترة الزمنية، التي تزاحمت فيها المؤلفات دون تقويم لها.

❁❁❁

• وكتاب «البديع في وصف الربيع » من المصادر المهمة التي تشكل مظهرا أدبيا جليا في الساحة الأدبية وله علامات وملامح ودلالات هامة في دراسة الأدب الأندلسي نذكر منها :

– احتوى الكتاب على كثير من المقطوعات الشعرية والنثرية لأشهر شعراء الأندلس خاصة شعراء إشبيلية الذين تواجدوا في القرن الخامس الهجري ولم تصل إلينا دواوينهم، سوى ما تناثر لهم من شعر في بعض المصادر الأندلسية.

وأصبح كتاب «البديع» موسوعة أدبية لفترة زمنية مهمة فترة عصر ملوك الطوائف.

= يمثل كتاب « البديع » جانباً مهما لدراسة الطبيعة الأندلسية والتي خصصها أبو الوليد في وصف النواوير الربيعية والتي لم توجد في مصدر آخر.

– تضمن الكتاب العديد من القضايا النقدية والآراء والنظرات التي تدخل في نطاق النقد الأدبي، فكان الكتاب أدبيا نقديا لم يكتف فيه المؤلف بالعرض ولكنه قام بالتعليق والموازنة والنقد.

❁❁❁

الخاتمة

– أوضحت الدراسة العلاقة الوثيقة بين الشعر والطبيعة ؛ لكونها مصدر إلهام للشعراء حيث يتخذون من عناصرها الحية والصامتة مادة لشعرهم، يتغنون بجمالها ويعبرون عن انفعالهم بمشاعرها، كما يظهرون مدى قدرتهم على الإبداع والتصوير.

– أثبتت الدراسة ازدهار النهضة الثقافية والرواج الأدبي الذي تمتعت به إشبيلية في القرن الخامس الهجري في عصر ملوك الطوائف وتحت مظلة «بني عباد» الذين اهتموا اهتماما كبيرا بالأدب والأدباء، فشجعوهم، وعرفوا لهم فضلهم، وأعلوا مكانتهم.

– كشفت الدراسة الدوافع الأساسية التي كانت تحرك أبا الوليد لتأليف كتابه «البديع» وأظهرت مغالاته في محاولته لإبراز تفوق الشعراء والكتاب الأندلسيين في وصفهم للطبيعة بفنونها المختلفة على المشارقة غلبة الأندلسيين ومزاحمتهم للمشارقة على هذا الغرض وأن هذه المزاحمة لا تعني التفوق عليهم في القيمة الفنية.

– أوضحت الدراسة مهارة أبى الوليد في اختياره لموضوع كتابه المتميز والمختلف عن كتب عصره والتي باتت تقليدية في موضوعاتها، حيث غفل الأدباء بحديثهم عن فصل الربيع وما يحدثه في الطبيعة من سحر وجمال وعن نواويره وأزهاره التي تتفتح عند قدومه، فجمع أبو الوليد كل ما سمعه وأملى عليه مشافهة في وصف النواوير في كتابه.

– بينت الدراسة أن كتاب «البديع في وصف الربيع» هو المصدر الوحيد الذي أظهر شخصية أبى الوليد وتحدث عنها، وأبرز ما فيها من جوانب أدبية فائقة وضحت في أشعاره وكتاباته التي اقتصرها على وصف النواوير الربيعية.

– بينت الدراسة المقدرة العلمية والتصنيفية لأبى الوليد في تقسيمه للكتاب إلى ثلاثة فصول أفرد كل فصل على حده، واختار ما يدون فيه من شعر ونثر حتى بدا كل فصل كتابا قائما بذاته، وهذا لم يتكرر كثيرا في مصادر الأدب الأندلسي.

– أظهرت الدراسة أن كتاب « البديع في وصف الربيع » عُنيّ بإبراز الفن النثري البديعي وهو فن الكتابة الوصفية، والتي شكلت ظاهرة بارزة في القرن الخامس الهجري وخاصة لدى أدباء الأندلس الذين أسرتهم طبيعة بلادهم، وقصرت كتاباتهم على وصفها.

– أثبتت الدراسة عناية أبى الوليد الملحوظة في تصديره وتمهيده لكل مقطوعة شعرية ونثرية مختارة، واتخاذه جودة الوصف مقياسا من مقاييسه في اختياره وانتخابه لهذه المقطوعات الربيعية، وهذا المقياس وإن كان من قبيل النقد التأثري الذاتي، إلا أنه يدل على مقدرة أبي الوليد النقدية التي بدت من خلال أحكام نقدية عامة غير معللة.

– بينت الدراسة المنهج العام الذي اتبعه الشعراء الأندلسيون،باستبدال المقدمة الطللية المألوفة التي نصف الأطلال وما حولها، بمقدمة وصفية تصف الروض وما يتجلى فيه من مباهج الأشجار والأزهار وخاصة في قصائد ومقطوعات المديح.

– بينت الدراسة مجموعة كبيرة من الشعراء والكتاب الأندلسيين، وأظهرتهم من خلال أعمالهم الشعرية والنثرية التي أثبتها أبو الوليد في كتاب « البديع » حيث لم تصلنا دواوينهم وأخبارهم إلا القليل منها في بعض المصادر الأدبية.

– أطلعتنا الدراسة على مجموعة كبيرة من الأزاهير والنواوير الربيعية والتي رتبها المؤلف حسب الترتيب الزمني لها، فأكسبتنا معرفة وثقافة بكل نوع من حيث ظهوره وشكله وخصائصه وكل ما قيل فيه من شعر أونثر.

– أثبتت الدراسة أن كتاب « البديع في وصف الربيع » يعد بحق من الآثار الأدبية الجليلة التي حفظت لنا رصيداً كبيراً من الأدب الأندلسي شعره ونثره.

❁❁❁

المصادر والمراجع

١ – **القرآن الكريم.**

٢ – **أدبيات أندلسية** « دراسة تاريخية أدبية نصية » – د/ عبد الله حسين علي سليمان مكتبة بسملة – الإسكندرية.

٣ – **أعمال الأعلام** – لسان الدين الخطيب – تحقيق : ليفي بروفنسال ود / أحمد مختار بيروت – دار المكشوف .١٩٦٥.

٤ – **الأدب الأندلسي بين التأثير والتأثر** – محمد رجب بيومي – الطبعة الأولى ٢٠٠٨ – مكتبة الدار العربية للكتاب.

٥ – **الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة** – أحمد هيكل – الطبعة السادسة – دار المعارف.

٦ – **البديع في وصف الربيع** – لأبي الوليد إسماعيل الحميري الإشبيلي.

٧ – **البديع في وصف الربيع** – تحقيق : عبد الله عبد الرحيم العسيلان – دار المدني بالرياض .١٩٨٧.

٨ – **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**– لابن عذار المراكشي – تحقيق : ليفي بروفنسال – بيروت دار الثقافة.

٩ – **التكملة لكتاب الصلة** – لأبي عبد الله محمد بن عبد الله القطامي – صححه وعنى بنشره : عزت العطار – مطبعة دار السعادة بمصر – الطبعة الأولى .١٣٧٥.

١٠ – **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية** – لضياء الدين عبد الله بن أحمد الأندلس المعروف بابن البيطار – المطبعة العامرية .١٢٩١.

١١ – **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** – لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني– تحقيق : د : إحسان عباس – الطبعة الأولى ١٣٩٩ – بيروت دار الثقافة.

١٢- **الزهور ونباتات الزينة** – د : مصطفى بدر – منشأة المعارف .١٩٩٦
١٣- **العمدة** – لابن رشيق القيرواني – بدر الغساني.
١٤- **المغرب في حلى المغرب** – لابن سعيد الأندلسي – تحقيق : د : شوقي ضيف – الطبعة الثالثة – دار المعارف .١٩٧٨
١٥ – **النبات** – لأبي حنيفة الدنيوري – تحقيق : د / محمد حميد الله – الطبعة الأولى.
١٦ – **تاريخ الأدب الأندلسي** « عصر الطوائف والمرابطين » – د : إحسان عباس – بيروت – دار الثقافة ١٩٦٩.
١٧ – **تاريخ الأدب العربي** « الأدب في المغرب والأندلس » – د : عمر فروخ – دار العلم للملايين
١٨ – **تاريخ الأدب العربي في العصر الإسلامي** – د : شوقي ضيف – دار المعارف.
١٩ – **تاريخ الأدب العربي في العصر الأندلسي** – د : عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت .١٩٧٦
٢٠ – **تاريخ الأدب العربي في العصر العباسي** – د : شوقي ضيف – الطبعة الثامنة – دار المعارف.
٢١ – **جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس** – لأبي عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي الدار المصرية .١٩٦٦
٢٢ – **شعر الطبيعة في الأدب العربي** – د : سيد نوفل – الطبعة الثانية – دار المعارف
٢٣ – **معجم الأدباء** – لياقوت ابن عبد الله الحموي – الطبعة الأولى.
٢٤- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب** – أحمد بن محمد المقري – تحقيق: د / إحسان عباس – بيروت – دار صادر ١٣٨٨.

الدواوين :-

٢٥ – **ديوان ابن الرومي** – تحقيق : د / حسين نصار – دار الكتاب القاهرة.

٢٦ – **ديوان الخنساء** – المطبعة الكاثولوكية – بيروت.

٢٧ – **ديوان المعاني** – لأبي هلال العسكري – شرحه وضبطه : أحمد حسن – الطبعة الأولى ١٩٩٤ – دار الكتب العلمية – بيروت.

❁❁❁

فهرس الموضوعات

- التقديم ٤٣٥
- تمهيد ٤٣٧
- تعريف بالمؤلف ٤٤١
- كتاب البديع عرض موجز ٤٤٥

الفصل الأول: اختيارات أبى الوليد ومنهجه فى تقسيمها ٤٤٧

- أولاً : مسلكه فى الفصل الأول ٤٤٧
- ثانياً : اختياراته فى الفصل الثانى ٤٦٨
- رسالة أبى حفص بن برد ٤٨١
- رسالة أبى الوليد ٤٨٦
- ثالثاً : اختياراته فى الفصل الثالث ٤٩٩

الفصل الثاني : كتاب البديع رؤية فنية ٥٢٣

الفصل الثالث: كتاب البديع... قيمته الأدبية والنقدية ٥٣٦

- الخاتمة ٥٤١
- ثبت المصادر والمراجع ٥٤٤
- فهرس المحتويات ٥٤٧